



سُورَةُ الْفُرْقَانِ

حينَ ينزل النورُ ليكشف وجوهَ الأشياءِ

رَدَّادُ السَّلَامِي

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

حين ينزل النور ليكشفَ وجوهَ الأشياء

المؤلف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

المقدمة

ثُمَّ سَوَّاهُ فَتَوَّاهُ لَكَ أَبْوَابُ الْمَعْنَى بَابًا بَابًا، وَثُمَّ سَوَّاهُ تَهَيَّأَ عَلَى الْقَلْبِ كَأَنَّهَا ضَوْءٌ خَاطِفٌ، فَإِذَا الْأَشْيَاءُ الَّتِي اخْتَلَطَتْ عَلَيْكَ قَدْ انْقَسَمَتْ جَفَاءً إِلَى جِهَتَيْنِ: هُنَا الْحَقُّ وَإِنْ قَلَّ أَهْلُهُ، وَهَنَّا الْبَاطِلُ وَإِنْ عَلَا صُحْبُهُ؛ هُنَا وَجْهُ يُتَجَّهُ إِلَى اللَّهِ، وَهَنَّا وَجْهُ نَتَقَاذِفُهَا الْأَهْوَاءَ؛ هُنَا إِنْسَانٌ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا، وَهَنَّا عَالَمٌ يُضَيِّحُ بِالْكِبَرِيَاءِ وَالْخُصُومَةِ وَالْإِقْتِرَاءِ.

وسورة الفرقان من هذا الضرب المضيء.

إنها لا تمنحك معلومةً فحسب، بل تمنحك بصيرةً تفصل. تضع في قلبك ميزاناً لا تتدعه كثرة، ولا تستفزه ضوضاء، ولا تزعزعه سخرية العابرين. ولهذا سَمِّيَ الْقُرْآنُ فِي مَطْلَعِهَا الْفُرْقَانُ؛ لِأَنَّ الْوَحْيَ لَا يَأْتِي لِيُضَيِّفَ صَوْتًا جَدِيدًا إِلَى أَصْوَاتِ الْعَالَمِ، بَلْ يَأْتِي لِيُكْشِفَ أَيْ الْأَصْوَاتِ صَدَى زَائِفٍ، وَأَيْهَا نَدَاءٌ مِنَ السَّمَاءِ.

تبدأ السورة بكلمة تنزل على الروح كالطر:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا).

تبارك... كلمة لا تكاد تُقال حتى يتراجع كل شيء إلى حجمه الحقيقي، ويبقى الله وحده في مقام الجلال والكمال والبركة التي لا تنفد. إنها ليست افتتاحاً لفظياً، بل تطهيراً للمشهد من أوهام البشر: فلا البركة في صنم، ولا في سلطان، ولا في مال، ولا في جمهور؛ وإنما أصل البركة ومنبعها ومآلها عند الله.

ثم انظر إلى هذا التلاقي العجيب بين عظمة المنزل وتواضع المنزل عليه:
(نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَى عَبْدِهِ).

لم يقل: على ملكه، ولا على عظيم قریش، ولا على صاحب الجاه والنسب؛ بل قال:
عبدہ. وكأن أرفع مقام يبلغه الإنسان أن يتحرر من عبودية كل شيء ليكون عبداً لله
وحده. فالعبودية هنا ليست انكساراً مهيناً، بل هي الانعتاق الكامل؛ إذ لا يصير الإنسان
حراً حقاً حتى لا يكون في قلبه سيّد غير الله.

ومن هذه الكلمة الأولى يبدأ الفرقان عمله في النفس: يفرّق بين العبودية التي ترفع،
والعبوديات التي تُذل؛ بين الخضوع لله الذي يعيد إلى الإنسان كرامته، والخضوع للهوى
الذي يسرق منه ملامحه وهو يظن نفسه حراً.

والسورة منذ مطلعها ذات أفقٍ عالمي:

(لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا).

فالقرآن لا ينتمي إلى قبيلة ضيقة، ولا إلى لحظة عابرة، ولا إلى بيئة انقضت. إنه
خطاب الإنسان ما دام الإنسان يتردد بين نور وظلمة، وبين شهوة وهداية، وبين أن يعبد
الله أو يصنع لنفسه آلهة بأسماء حديثة. يتغير شكل الصنم، ولا تتغير الوثنية؛ وقد يغادر
الصنم المعبّد ليسكن السوق أو القصر أو الشاشة أو أعماق النفس.

في أجواء هذه السورة سنجد عالين متقابلين:

عالمًا يصنع الضجيج كي لا يسمع الحقيقة، وعالمًا يمشي في سكونية لأنه سمعها واستقر بها.

سنرى المعاندين وهم يقفون أمام الوحي لا يسألون طلباً للهداية، بل يبحثون عن حجة يحجون بها ما ألفوه. مرةً يقولون: لماذا يأكل الرسول الطعام؟ ومرةً: لماذا يمشي في الأسواق؟ ومرةً يطلبون ملكاً يرافقه، أو كنزاً يلقي إليه، أو جنة يأكل منها. إنهم لا يرفضون الدليل لأنه غامض، بل لأنهم يريدون أن تأتي الحقيقة وفق مقاييس غرورهم.

لقد أرادوا رسولاً لا يشبه الإنسان؛ لأنهم لو قبلوا بشريته لزمهم أن يعترفوا بأن الطريق الذي سار فيه ممكنٌ لهم أيضاً، وأن التكليف ليس فوق الطاقة، وأن العذر قد سقط.

ومن عجيب الضلال أن المرء قد يطلب من الحق أن يتزّن له قبل أن يؤمن به؛ كأن الحقيقة لا تكون حقيقةً حتى تنال رضاه! وهنا يكشف الفرقان مرضاً خفياً في النفس: أن تجعل ذوقك حاكماً على الوحي، بدل أن تجعل الوحي مريباً لذوقك.

ولذلك تأتي السورة شديدةً في فضح منطق التكذيب، لكنها لا تفقد دفء الرحمة. إنها تهدم الباطل لا حباً في الهدم، بل رحمةً بالإنسان الذي يسكن تحته. تضرب القيد لأنها تريد تحرير الأسير، وتفضح الوهم لأنها تريد أن تبصر الروح.

ثم تمضي السورة، فإذا الكون نفسه يتحول إلى كتابٍ مفتوح: الظلُّ يتمدد، والشمس دليلٌ عليه، والليل لباس، والنوم سبات، والنهار نشور، والرياح بشرٌ بين يدي الرحمة، والماء الطهور ينزل على أرضٍ ميتة، فتحيها به البلاد وتسقي الأنعام والناس.

ليس الكون هنا أثاثاً صامتاً يحيط بالإنسان؛ إنه آياتٌ تتكلم، ولكن الذين فقدوا رهاقة القلب يعبرون بها ولا يسمعون.

تأمل قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ).

لم يقل: ألم تر إلى الظل، بل قال: إلى ربك كيف مد الظل؛ لأن البصيرة لا تتف عند الظاهرة، وإنما تنفذ منها إلى فاعلها. العين ترى الظل، والقلب يرى يد التدبير. العين ترى حركة الكون، والقلب يسمع فيها تسبيح الخالق.

وما أطف إضافة الرب إلى المخاطب: ربك. كأن الظل الذي يمتد على الأرض لم يكن مشهداً كونياً بعيداً، بل رسالة عناية خاصة: هذا الذي مد الظل هو ربك، والذي جعل الشمس عليه دليلاً هو ربك، والذي يقبضه إليه قبضاً يسيراً هو ربك. أنت لست متروكاً في فضاء بارد؛ أنت في كونٍ يقوم كلُّ شيءٍ فيه على تدبير ربِّ رحيم.

وهكذا تردُّ السورة القلب من صخب المكذبين إلى هدوء الكون؛ كأنها تقول: إذا كثرت أصوات الباطل حولك، فانظر إلى السماء، وتأمل الظل، وأصغ إلى المطر. إن الحقيقة التي يكابرونها مكتوبةٌ في كل شيء.

ثم تبلغ الرحلة ذروتها في خاتمة السورة، حين يخرج من بين ذلك الضجيج قومٌ كأنهم الندى بعد غبار الطريق:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا).

يا لها من مفاجأة بديعة!

بعد المكذبين والمعاندين والمستهزئين، وبعد جهنم وتغيّظها وزفيرها، وبعد جدال طويل مع القلوب المتحجرة؛ يطلُّ عباد الرحمن في سكونية. لا يعلنون عن أنفسهم بصخب، ولا

يدفعون الناس عن الطريق بأكثاف الغرور؛ إنهم يمشون فحسب، لكن مشيتهم تحمل عقيدتهم كلها.

يمشون هوناً، لا ضعفاً ولا تماوتاً، بل سكينَةً من عرف قدره أمام الله. لا يحتاج إلى أن يستطيل على الناس من امتلاء قلبه بعظمة ربه، ولا يطلب من الأرض أن تصفق لخطواته من كان يرجو أن تعرفه السماء.

وحين يخاطبهم الجاهلون لا ينحدرون إلى قاع الجهل، بل يقولون: سلاماً. ليس سلام العاجز، ولكنه علوُّ القادر عن معركة لا تليق ببقاء روحه. إنهم لا يسمحون للجاهل أن يختار لهم اللغة التي يتكلمون بها، ولا المزاج الذي يعيشون فيه. قد يقذف إليهم الجاهل ناره، لكنهم لا يحملونها في صدورهم؛ يمرّون بها بسلام، ويتركونها تنطفئ خلفهم.

وفي الليل، حين تسقط الأقنعة ويخفت ضجيج الأرض، تراهـم:

(وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا).

إنهم في النهار يمشون هوناً، وفي الليل يقفون طويلاً. تواضعهم بين الناس ثمرة خضوعهم لله؛ فمن طال سجوده في الخلوة، هان عليه أن يترك الاستعلاء في العلانية.

هذه هي هندسة الشخصية القرآنية في السورة: علاقةٌ بالله تصلح المشي على الأرض، وسجدةٌ في الليل تهذب الكلمة في النهار، وخوفٌ من النار يمنع ظلم الخلق، ويقينٌ بالآخرة يحرر القلب من شهوة الظهور.

سوف نسير في هذه السورة بين مشاهد متقابلة: من القرآن الذي نزل فرقاناً، إلى القلوب التي اتخذت أهواءها آلهة؛ ومن الرسول الذي شكا هجر قومه للقرآن، إلى عباد الرحمن

الذين صار القرآن أخلاقاً تمثلي؛ ومن الليل لباساً، إلى الليل محراباً؛ ومن الماء الذي يحيي الأرض، إلى الوحي الذي يحيي الأرواح.

إنها سورة تعلمنا أن الفرقان ليس ككأباً نضعه على الرف، بل نوراً نضعه في أعماقنا؛ حتى نعرف متى نقف، ومتى نمضي، ومتى نتكلم، ومتى نقول للجاهلين سلاماً.

ومن هنا تبدأ رحلتنا:

من اللحظة التي ينزل فيها النور، لا ليغيّر أسماء الأشياء، بل ليكشف حقيقتها. لنرى الباطل وإن ارتدى ثياب الهيبة، ونرى الحق وإن مشى وحيداً على الأرض هوناً.

المحطة الأولى

حين يقف التوحيد وحده في قلب الوجود

بعد أن افتتحت السورة أبوابها بهذه الكلمة المهيبة:
(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ)، أخذت ترسم الحقيقة الأولى التي يقوم عليها كلُّ
فرقان: أن الله واحد في ملكه، واحد في خلقه، واحد في تقديره، لا يتسلل إلى سلطانه
شريك، ولا يفتقر تديره إلى معين.

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ
كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرُهُ تَقْدِيرًا).

نتوالى الجمل كأنها تطهر القلب من بقايا التعلق بغير الله:
له الملك كله، فلا ولد.
وله التدبير كله، فلا شريك.
وله الخلق كله، فلا شيء خارج عن مشيئته وعلمه وقدرته.

وحين يقول: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ)، تشعر أن الوجود بأسره قد اجتمع في قبضة معنى
واحد؛ فلا شيء جاء مصادفةً، ولا كائن أفلت من العلم، ولا ذرة ضاعت بين السماء
والأرض.

ثم يأتي قوله: (فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا)، فيكسو الخلق بالحكمة بعد أن أثبت له الإيجاد. لم يخلق
الأشياء ثم يتركها سائبة، وإنما أعطى كلَّ شيءٍ مقداره، وحدّه، ووظيفته، وزمانه،

ومكانه. جعل للشمس مساراً لا تخطئه، وللقمر منازل لا يضل عنها، وللبذرة موعداً خفياً تنشق فيه، وللطفل أجلاً يخرج فيه من ظلمات الرحم إلى نور الدنيا.

وحتى ما يبدو لك في حياتك خارجاً عن الترتيب، فإنه لم يخرج عن التقدير. قد تضطرب رؤيتك، لكن تدبير الله لا يضطرب؛ وقد تجهل موضع الحادثة من قصة عمرك، لكن الله يعلم كيف يضع كل وجع، وكل فقد، وكل تأخير، وكل عطاء في مكانه الذي لا يراه قلبك الآن.

ليس معنى التقدير أن تدرك الحكمة من كل شيء فوراً، بل أن تؤمن أن للأشياء حكمة وإن غابت عنك. فالطفل لا يفهم لماذا يمنعه أبوه مما يشتهي، والمريض لا يرى في مرارة الدواء غير المرارة، والإنسان قد يقف أمام بعض أقدار الله حائراً؛ لكن الحيرة غير الاعتراض، والعجز عن رؤية الحكمة ليس دليلاً على غيابها.

إن قوله: (فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) يسكب في القلب سكيناً عميقة: أنت لا تعيش في فوضى، ولا تسقط خارج العناية، ولا تمر بك الأحداث هكذا بلا ميزان. وراء الستار علم لا ينسى، وحكمة لا تعبث، ورحمة قد تعمل في حياتك من حيث لا تراها.

ثم تعرض السورة المشهد المقابل:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا).

ها هنا تسقط الآلهة المصنوعة تحت وقع الكلمات.

لا يخلقون شيئاً.

وهم يُخلقون.

لا يملكون لأنفسهم ضراً.

ولا نفعاً.

لا يملكون موتاً.

ولا حياةً.

ولا نشوراً.

إنها محاكمة للعقيدة الباطلة بلغة الفطرة. كيف يُعبد من كان مصنوعاً؟ وكيف يُرجى من لا يملك لنفسه؟ وكيف يُطلب الخلود ممن لا يملك موتاً ولا حياةً ولا بعثاً؟

والتعبير القرآني لا يكتفي بنفي القدرة عنهم تجاه الآخرين، بل يبدأ بعجزهم عن أنفسهم: (وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا). وهذه غاية الانكشاف؛ فالذي لا يملك أمر نفسه، كيف يُسلم إليه أمر القلب والمصير؟

وما تزال هذه الآية حاضرةً في كل عصر، وإن تبدلت أسماء الآلهة. فقد لا يسجد الإنسان اليوم لحجر، لكنه قد يمنح قلبه لشيء عاجز: مالٍ يخشى زواله، أو لشخصٍ يخاف فقده، أو لسلطةٍ يتوهم أنها تملك مصيره، أو لجمهورٍ يطلب منه الاعتراف بوجوده. وكلما علّق القلب نجاته المطلقة بخلق، حمّله من معنى الألوهية ما لا يحتمل.

التوحيد لا يعني أن تقطع أسباب الحياة، بل أن تعرف قدرها. تأخذ بالسبب ولا تسجد له، تحب الإنسان ولا تعبده، تستعمل المال ولا تجعله سيدك، تنتفع بالقوة ولا تظنها مستقلةً عن الله. تظل الأشياء في يدك، ويبقى الله وحده في قلبك.

حين يعجزون عن إسقاط الوحي فيتهمونه

وحين لم يجد المعاندون في القرآن خلاً يردونه به، حاولوا أن ينقلوا المعركة من حقيقة الرسالة إلى مصدرها:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ).

إنها حيلة قديمة من حيل العجز: حين لا تستطيع مواجهة الفكرة، اصنع حول صاحبها تهمة. وحين لا تقدر على هدم النور، حاول أن تشوه اليد التي تحمله.

قالوا: افتراه.

وقالوا: أعانه عليه آخرون.

لكن التهمة نفسها متهافة؛ فالقرآن الذي أعجز فصحاءهم، وأقام عليهم الحجة في لغتهم، وهزّ تصوراتهم عن الكون والإنسان والمصير، كيف يكون عمل نفرٍ خفيين لا يُعرف لهم من البيان ما يقترب من بيانه؟

ولذلك لم تطل الآية في مناقشتهم، بل أصدرت حكماً قاطعاً:

(فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا).

ظلمًا؛ لأنهم وضعوا القول في غير موضعه، ونسبوا كلام الله إلى البشر. وزورًا؛ لأنهم عرفوا انحراف ما يقولون، ثم زخرفوه ليبدو مقبولًا.

والزور ليس مجرد كذب؛ إنه كذبٌ جرى تجميله حتى يضلَّ السامع عن وجه الحقيقة. وقد يكون الباطل ضعيفاً في ذاته، لكنه يستعير من كثرة الترداد هيئةَ الصدق. يكره الناس حتى يأنسوا به، ثم يأنسون به حتى يتوهموه حقاً.

لكن القرآن لا يزن الأقوال بعدد مكرريها، بل بصدقها. ولهذا جاء الفرقان: ليحرر الحقيقة من التصويت عليها، ويعلم القلب أن الحق لا يصير باطلاً لأن الناس هجروه، ولا يصير الباطل حقاً لأن الجموع صاحت به.

ثم قالوا:

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فِي يَ أَيُّكُمْ عَلَيْهِ بُرْهَانٌ وَأَصِيلًا).

إنها محاولة أخرى لتصغير الوحي: ما هذا إلا حكايات قديمة جُمعت وأعيد سردها! وكأنهم لم يسمعوا في القرآن ذلك السلطان الذي كان يخلخل بناءهم الداخلي، ويكشف أسرار نفوسهم، ويضع أصابعه على مواضع خوفهم وكبريائهم.

إن الذي يصف الوحي بأنه أساطير لا يكشف حقيقة الوحي، بل يكشف ضيق قلبه عن استقباله. فالشمس لا تفقد نورها لأن أعْمى أنكرها، والماء لا يفقد عذوبته لأن مريض الذوق لم يجد فيه طعماً.

وجاء الرد من مقام العلم:

(قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا).

لم يقل فقط: أنزله الله، بل قال:
(الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ).

وهنا يرتفع الرد من ساحة الجدل إلى أعماق الوجود. هذا القرآن صادرٌ عن علمٍ محيط؛ يعلم أسرار السماوات والأرض، ويعلم السر الذي يختبئ في قلبك، ويعلم ما لا تستطيع أنت أن تسميه من خوفك ورجائك، ويعلم السؤال الذي يوجعك قبل أن تصوغه كلماتك.

لهذا يصيب القرآن مواضع النفس بتلك الدقة المذهلة؛ لأنه لم ينزل ممن يراقب ظاهر الإنسان، بل ممن خلق سرّه وعلايته. يخاطب فيك ما تخفيه عن الناس، وما تخفيه أحياناً عن نفسك. وقد تقرأ الآية فتحسب أنها نزلت الآن، وأنها عبرت القرون كلها لتقف أمام جرحك بعينه؛ لأن الذي أنزلها يعلم السر في السماوات والأرض.

ثم تُختتم الآية بما يفيض دهشةً ورحمة:

(إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا).

بعد افتراءهم، وبعد اتهامهم للوحي، وبعد ظلمهم وزورهم، لا يغلق الباب. يذكّرهم بأنه غفور رحيم! كأن الرحمة تتبعهم حتى وهم يفرون منها، وكأن باب العودة يظل مفتوحاً في الجدار الذي بنوه بأيديهم.

يا لعظمة هذا الكتاب: يفضح الجريمة، لكنه لا يبيئس المجرم من التوبة؛ يكشف الزور، لكنه يترك للكاذب طريقاً إلى الصدق؛ يقيم الحجة بقوة، ثم يضع إلى جوارها باب الرحمة.

فالله يعلم السر؛ ولذلك لا يخدعه ادعائهم. وهو غفور رحيم؛ ولذلك لا تمنعه معرفته بنجس السر من أن يدعو صاحبه إلى النجاة.

بشرية الرسول وامتحان القلوب

ثم ينتقل المعاندون إلى شخص الرسول ﷺ:

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ).

لقد أرادوا للرسالة أن تأتيهم في صورةٍ تستجيب لخواصهم، لا في الصورة التي اختارها الله. استغربوا أن يأكل الرسول، وأن يمشي في الأسواق؛ كأن الاتصال بالسماء يقطع الإنسان عن الأرض، وكأن النبوة ينبغي أن تلغي البشرية.

لكن جمال الرسالة في أن حاملها بشر. يجوع كما يجوعون، ويمشي حيث يمشون، ويعرف تعب الجسد وهمّ المعاش، ثم يظل قلبه متصلاً بالله. لم تُرسله السماء ليقدم نموذجاً مستحيلاً، بل لتثبت أن الإنسان يستطيع، وهو يعيش بشريته كاملة، أن يبلغ أعلى مقامات العبودية.

كان يأكل الطعام، لكن الطعام لم يستعبده.
ويمشي في الأسواق، لكن السوق لم يدخل قلبه.
ويخالط الناس، لكن ضجيجهم لم يحجبه عن ربه.

المشكلة لم تكن في أكل الطعام ولا في المشي في الأسواق؛ بل في عيونٍ عجزت عن رؤية الجلال حين يلبس ثوب البساطة. كانوا ينتظرون عظمةً تصعق الأبصار، فجاءتهم عظمةٌ تهدي القلوب. أرادوا ملكاً تحفه الخوارق، فأرسل الله عبداً تحفه الأخلاق.

وهنا يكمن امتحان الإيمان: هل تستطيع أن ترى نور الحقيقة حين يأتيك بلا زينةٍ دنيوية؟ هل تعرف الحق من جوهره، أم لا تعترف به حتى يحيط به المال والسلطان والجمهور؟

إن كثيراً من الناس لا يرفضون الحقيقة لأنها ناقصة، بل لأنها لم تأتهم من الباب الذي يعظّمونه. قد ينطق بها فقير فيحتقرونها، ثم يقولها صاحب جاه فيصفقون لها. فلا تكون عيونهم متجهةً إلى المعنى، بل إلى الثوب الذي يرتديه.

أما الفرقان فيجرد الحقيقة من هذه الأوهام، ويقول للقلب: انظر إلى النور، لا إلى المصباح؛ وإلى القول، لا إلى منزلة قائله في دنيا الناس.

وهكذا تمضي السورة، تزيل قناعاً بعد قناع، حتى يبقى السؤال عارياً في أعماق النفس:

هل تريد الحق حقاً؟

أم تريد حقاً يصادق هواك، ويأتي في الهيئة التي اخترتها، ولا يطالبك بأن تتغير؟

المحطة الثانية

حين يقيسون الرسول بذهب الأرض

لم يكن اعتراض القوم بحثاً عن برهان، بل محاولة دائمة لنقل الرسالة من ميدان الحقيقة إلى ميدان الاستعراض. ولهذا لم يكتفوا بقولهم:

(مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ).

بل اقترحوا صورةً أخرى للنبوّة:

(لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا).

إنهم لا يناقشون ما جاء به، بل يسألون عما يملكه. لا ينظرون إلى النور في كلماته، بل إلى غياب الكنز عن يديه. وكأن قيمة الرسالة تُقاس بمقدار الذهب الذي يحيط برسولها!

وهذه إحدى أقدم علل النفس البشرية: أن تخلط بين قيمة الإنسان وما يملكه الإنسان؛ فتظن الغني أحق بالتصديق، وصاحب السلطان أقرب إلى الحكمة، والمشهور أوسع علماً، والضعيف أقلّ حظاً من الحقيقة.

لكن الله أراد لنبيه ﷺ أن يحمل أغني كتابٍ بقلبٍ لا تملكه الدنيا. أراد له أن تكون معجزته في ذات الرسالة، لا في خزائن الأرض؛ لأن الكنز قد يخضع له الطامعون، أما القرآن فلا يخضع له إلا من طلب الحق.

كان يمكن أن يجعل الله لرسوله قصوراً وحدائق وأنهاراً، ولكنه أراد أن تبقى المسافة واضحة بين الرسالة والمصلحة؛ فلا يقول تابع: إنما تبعناه لما أعدق علينا، ولا يقول معاند: إنما جمع الناس حوله بسطان المال. جاءهم مجرداً من زخرف الدنيا، ممتلئاً بسطان الوحي.

ولهذا قال تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا).

ليس الله عاجزاً أن يمنح نبيه ما اقترحوه، بل قادرٌ أن يعطيه خيراً مما تخیلوا. ولكن الحكمة ليست في مجرد القدرة على العطاء، وإنما في وضع العطاء حيث تتحقق غايته.

لقد جعلوا عدم وجود الكنز دليلاً على ضعف الرسالة، فردَّ الله بأن خزائن كل شيء بيده. وما جُوب عن النبي ﷺ لم يُجوب عجزاً، بل تقديرًا. وكم من شيء لم يعطك الله إياه لا لأنه لا يقدر أن يعطيك، بل لأنه يريد أن يعطيك ما هو أبقي، أو يحمي قلبك مما لا تعرف خطره، أو يقودك من طريق الحرمان الظاهر إلى غنى لا يُشترى.

قد تكون بعض المنع عطاءً تنكّر في ثياب الحرمان، وبعض التأخير حماية لا ترى وجهها إلا بعد زمن. وليس كل ما تمنّاه القلب صالحاً له، ولا كل ما غاب عن اليد غاب عن العناية.

المشكلة لم تكن في الدليل

بعد عرض مقترحاتهم، تكشف السورة الجذر الحقيقي للتكذيب:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ).

كلمة بل هنا تقطع ستار الأعذار. ليست القضية أن الرسول يأكل الطعام، ولا أنه يمشي في الأسواق، ولا أنه لم يلقَ إليه كنز؛ إنما القضية أعمق من ذلك: إنهم لا يريدون أن يؤمنوا بالساعة.

فالآخرة ليست خبراً يقع في آخر العقيدة فحسب؛ إنها قوةٌ تعيد ترتيب الحياة كلها. من آمن بالساعة لم يعد قادراً على أن يعيش عبثاً، ولا أن يظلم آمناً، ولا أن يجعل اللذة العاجلة حَكماً على أفعاله. إن الإيمان بالآخرة يهدم وهم الإفلات: كل كلمة محفوظة، وكل دم محسوب، وكل حق مردود، وكل سر معروف.

ولهذا يقاوم بعض الناس الآخرة؛ لأنهم لا يريدون للحياة أن تكون مسؤولة. يريدون دنيا بلا حساب، وشهوة بلا تبعة، وقوة لا تقف يوماً بين يدي العدل.

إن التكذيب بالساعة ليس خطأً نظرياً بارداً؛ إنه بابٌ واسع للانفلات. فما الذي يردع المستبد حين تغيب عنه عيون الناس؟ وما الذي يمنع القوي من سحق الضعيف إن كان يظن أن التراب نهاية القصة؟ وما الذي يحفظ للخير معناه إذا انتهى المحسن والمجرم إلى مصير واحد؟

الساعة هي الموعد الذي تستقيم عنده الموازين المختلفة، وتُسترد فيه الحقيقة من أيدي المزورين، ويعلم الذين عبروا الدنيا مظلومين أن شيئاً من وجعهم لم يضع.

نارُ تراهم قبل أن يروها

ثم يفتح مشهد الآخرة فجأة:

(وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا).

يا له من تصوير ترتجف له الروح!

لم يقل: إذا رأوها، بل قال:
(إِذَا رَأَتْهُمْ).

كأن النار ذات عينٍ تعرف أصحابها، وتلهجهم وهم ما يزالون بعيدين. وقبل أن يصلوا إليها يسمعون تغيطها وزفيرها. المسافة التي كانت تمنحهم في الدنيا وهم الأمان لم تعد تنفع؛ فالعذاب قد عرفهم، والنار قد استقبلتهم بصوت غضبها.

والتغيظ غضبٌ محتدم في الداخل، والزفير نفسٌ يندفع من شدة الامتلاء. وباجتماعهما تتحول النار من صورة جامدة إلى مشهد حيٍّ يطارد الوجدان: لها تغيطٌ يُسمع، ولها زفيرٌ يملأ المكان رعباً.

ثم يضيق المشهد بعد ساعته:

(وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا).

النار واسعة، لكن المكان الذي يُلقون فيه ضيق؛ ليجتمع عليهم ألم الاحتراق واختناق الحبس وثقل القيود. ولفظة (الْقَوَا) تنزع عنهم كل قدرة؛ فهؤلاء الذين كانوا يمشون في الأرض مستكبرين صاروا يُطرحون طرْحًا، مقرنين بعضهم إلى بعض.

هنالك لا يطلبون نجاة؛ إذ يرون أبوابها قد أغلقت، وإنما يدعون ثبورًا: يتمنون الهلاك الكامل ليتخلصوا مما هم فيه. لكن الجواب يأتي بما يقطع حتى أمل الفناء:

(لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا).

في الدنيا كان الموت نهاية الألم، أما هناك فلا موت ينقذهم. لقد كانوا يكذبون بالخلود، فإذا أشد ما يعذبهم أنهم خالدون.

والمقصود من هذا التصوير ليس أن يستمتع المؤمن بمشهد العذاب، بل أن يستيقظ. القرآن لا يرسم النار للتلذذ بخوف الإنسان، وإنما لينقذه منها. الإنذار رحمة تأتي في ثوب الشدة؛ فن أخبرك بالحفرة قبل أن تسقط فيها لم يربك، بل حماك.

بين المكان الضيق وجنة الخلد

وبعد أن بلغ المشهد غاية الضيق، تفتح السورة فجأة نافذة على النعم:

(قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا).

في الجهة الأولى: مكان ضيق، وقيود، وثبور، ونار لا تنطفئ.
وفي الجهة الأخرى: جنة، وخذل، ووعد، وجزاء، ومصير.

وليس السؤال: (أَذْلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ) سؤالاً عن مفاضلة حقيقية؛ فلا وجه للمقارنة بين النار والجنة. إنما هو تهكمٌ مريرٌ بذلك الاختيار العجيب: كيف يترك الإنسان طريق الخلد، ثم يمضي بعينه إلى السعير؟ كيف يبيع مصيراً لا ينتهي بلذةٍ تنتهي قبل أن يشبع منها؟

وسمّاها: (جَنَّةُ الْخُلْدِ)؛ لأن أعظم ما ينغص نعيم الدنيا أنها زائلة. كل جمالٍ فيها مهدد بالفراق، وكل اجتماع يتسلل إليه شبح التفرق، وكل صحة تسير في اتجاه الضعف، وكل لحظة سعيدة يطويها الزمن.

أما هناك، فقد نزع الخوف من النعمة. لا يخشى أهل الجنة أن يشيخوا، ولا أن يفقدوا أحبابهم، ولا أن يُخرجوا من ديارهم، ولا أن تنطفئ بهجة أرواحهم. الخلود ليس مجرد امتداد للزمن، بل أمانٌ كامل من الفقد.

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا).

ما أعذب قوله: (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ). لقد عاش المتقون في الدنيا وهم يردّون نفوسهم عن بعض ما تشاء؛ لأن الله لا يرضاه، فجاء اليوم الذي أذن فيه للمشيئة أن تنطلق طاهرةً بلا خوف ولا إثم ولا زوال.

في الدنيا كانت أمنياتهم أوسع من قدرتهم؛ يريدون أشياء لا يملكونها، ويملكون أشياء لا تدوم. أما في الجنة، فلا فجوة بين الرغبة والقدرة، ولا مسافة بين الأمنية وتحقيقها.

ثم يقول: (كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا). وما كان لأحد أن يلزم الله شيئاً؛ ولكنه سبحانه أوجبه على نفسه فضلاً، وأذن لعباده أن يسألوه وعده. يدعونه في الدنيا أن يبلغهم الجنة، وتساءل الملائكة لهم ذلك، حتى يأتي يوم الوفاء الذي لا يخلف.

حين تثبراً المعبودات من عابديها

ثم تعرض السورة محكمةً من محاكم القيامة:

(وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ).

إنه سؤال تقريع وكشف، لا سؤال استعلام؛ فالله يعلم من أضلَّ ومن ضلَّ. لكنه يريد أن يسمع العابدون من معبوداتهم البراءة التي لم يتوقعوها.

في الدنيا كانوا يلتجئون إليها، ويتقربون منها، ويظنون أنها تحملهم عند الشدة. فإذا جاء يوم الشدة الكبرى وقفت منهم موقف الخصم:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ).

أول كلمة ينطقون بها: سبحانك. ينزهون الله عن الشريك الذي اقتراه العابدون، ويتبرؤون من تلك الصلة الزائفة التي أقامها الناس باسمهم.

ثم يكشفون علة الضلال:

(وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا).

لم يكن المتاع شراً في ذاته، لكنهم استغرقوا فيه حتى نسوا الذكر. تحولت النعمة من جسرٍ إلى الشكر إلى حجابٍ عن المنعم. طال عليهم الرخاء فتوهوا أن الحياة ستبقى كما هي، وأن النعمة حقٌ مكتسب لا أمانة، وأن الزمن لن ينقلب عليهم.

وهنا تكمن فتنة العطاء: فالبلاء قد يوقظك، أما النعمة فقد تخدرك إذا لم تُقابل بالذكر. الألم يدفعك إلى السؤال عن الله، والرخاء قد يوهمك أنك لا تحتاج إلى أحد.

(وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا).

والبور هو الهلاك والفساد والكساد. كأن أرواحهم، مع كثرة ما مُتّعوا به، صارت أرضاً لا تثبت. امتلأت أيديهم، وفرغت قلوبهم؛ عمروا مساكنهم، وخرّبوا مصائرهم.

ثم يقال لهم:

(فَقَدْ كَذَّبُوا كُفْرًا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا).

هذا هو الانهيار الأخير للوهم: الذين علقوا عليهم رجاءهم كذبوهم وتبرؤوا منهم، فلا يستطيعون صرف العذاب، ولا يملكون نصرة أنفسهم.

كل علاقة تُبنى بعيداً عن الله تحمل في داخلها بذرة الخذلان. وكل حبٍ يطلب منك أن تعصي الله من أجله سيتبرأ منك حين تحتاج إليه. وحدها الصلوات التي تنعقد في نور الله تبقى حين تسقط سائر الصلوات.

الرسالة لا تلغي بشرية الرسول

وتغلّق هذه المحطة بقاعدةٍ تسقط اعتراضهم من أصله:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ).

كل الرسل كانوا بشرًا. لم تكن حاجتهم إلى الطعام نقصًا في رسالتهم، ولا مشيتهم في الأسواق حجابًا عن اصطفائهم. لقد أراد الله للقدوة أن تعيش داخل الشروط الإنسانية، كي لا يحتاج أحدٌ بأن الطهر لا يمكن أن يسكن جسدًا يجوع ويتعب، أو أن الاتصال بالله لا يكون إلا خارج الحياة.

ثم تأتي العبارة التي تكشف سر العلاقات البشرية كلها:

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا).

بعضكم لبعض فتنة.

الغني فتنة للفقير: أبصر أم يحسد؟

والفقير فتنة للغني: أيرحم أم يتكبر؟

والقوي فتنة للضعيف: أعدل أم يبطش؟

والضعيف فتنة للقوي: أيثبت أم يبيع حقه؟

والعالم فتنة للجاهل، والجاهل فتنة للعالم، والمؤذي فتنة للحليم، والمحبوب فتنة لمن أحبه.

ليس الناس الذين تعترض بهم في الطريق حوادث عشوائية؛ بعضهم امتحان لبعض. قد يختبر الله صبرك بمن لا يفهمك، وإخلاصك بمن لا يشكر، وحلمك بمن يستفزك، وثباتك بمن يسخر منك.

ثم لا تسأل الآية: أنتصرون؟ ولا: أتغلبون؟ بل تسأل:

(أَتَصْبِرُونَ).

لأن النصر الحقيقي يبدأ من ألا يسمح الإنسان للفتنة أن تنتزع منه عبوديته وأخلاقه. قد لا تملك تغيير الآخرين، لكنك تملك أن تمنع أذاهم من إعادة تشكيل قلبك على صورتهم.

(وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا).

يبصر تعب الصابر حين لا يراه أحد، ويبصر الكلمة التي ابتلعها خشية أن يظلم، والدمعة التي أخفاها، والشر الذي قدر عليه ثم تركه لله. قد يجهل الناس مقدار المعركة الدائرة في قلبك، لكن ربك بصير.

ولهذا يستطيع المؤمن أن يصبر: لا لأن الألم قليل، بل لأن عين الله لا تغيب.

المحطة الثالثة

حين يطلب المتكبرون أن تنحي السماء لشروطهم

بعد أن كشفت السورة أن بشرية الرسل لم تكن عيباً في الرسالة، تنتقل إلى طورٍ أشد من العناد؛ فهؤلاء لم يكتفوا برفض الرسول ﷺ لأنه يمشي في الأسواق، بل أرادوا أن تُلغى سنة الامتحان كلها، وأن يأتيهم الإيمان قسراً في هيئة مشهدٍ لا يترك لهم مجالاً للاختيار:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا).

تأمل كيف قدّمت الآية وصفهم قبل مقاتلتهم:
(الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا).

كأن هذا الطلب الجريء لم ينبت من بحثٍ صادق عن اليقين، بل من قلبٍ لا يستعد للقاء الله. إنهم لا يريدون رؤيةً تقود إلى الإيمان، وإنما يريدون شرطاً يستحيل معه معنى التكليف؛ يريدون أن يروا الغيب عياناً، فإذا صار الغيب شهادةً لم يبق للإيمان فضل، ولا للقلوب امتحان.

وهناك فرقٌ عظيم بين سؤال المسترشد وسؤال المتعنت. المسترشد يطلب علامةً ليهتدي، فإذا جاءه بعض النور انحنى له. أما المتعنت فيطلب علامةً ليؤجل انحناءه، وكلما جاءه دليلٌ اخترع شرطاً جديداً.

ثم تكشف السورة ما وراء الطلب:

(لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا).

الاستكبار بدأ في أنفسهم قبل أن يظهر على ألسنتهم. فكل عتوّ ظاهر سبقه تضخّمٌ خفي في الداخل؛ لحظة يرى فيها الإنسان نفسه أكبر من أن يتلقى، وأرفع من أن يخضع، وأحقّ بأن يضع الله شروط الإيمان.

الكبرياء في جوهره خللٌ في رؤية الأبحار: يرى الإنسان نفسه أكبر مما هي، ويرى الحق أصغر من أن يقوده. ولهذا كان التواضع باب المعرفة؛ لأن المتواضع لا يطلب من الحقيقة أن تنحني له، بل ينحني هو لها حين تتبين.

سَيْرُونَ الملائكة... ولكن بعد فوات زمن البشارة

لقد طلبوا نزول الملائكة، وستنزل الملائكة فعلاً:

(يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا).

يا للفارقة الموحجة! ما طلبوه استهزاءً سيصبح حقيقة، لكن في الزمن الذي لا ينفع فيه التصديق. سيرون الملائكة، لا وهي تحمل إليهم فرصةً جديدة، بل وهي تستقبلهم بالحكم الأخير.

ليس كل ظهور للحقيقة رحمةً لمن يراها؛ فقد تأتي الحقيقة بعد انقضاء المهلة، فتكون حسرةً لا هداية. والإنسان لا يهلك لندرة الأدلة دائماً، بل قد يهلك لأنه ظل يؤجل الاستجابة حتى جاءه الدليل الذي لا يملك بعده أن يعمل.

وقوله: (لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ) ينطوي على مهابةٍ ثقيلة؛ فالبشرى موجودة، ولكنها ليست لهم. الملائكة التي تدخل على المؤمنين بالسلام هي نفسها التي لا يحمل حضورها للمجرمين أماناً.

أما قولهم: (حِجْرًا مَّحْجُورًا)، فهو استجارةٌ وطلبٌ للمنع والحماية؛ كأنهم يقولون: حراماً ممنوعاً أن يصل إلينا هذا العذاب. لكن أين كان هذا الخوف حين كان الوحي يحذرهم؟ لقد طلبوا الحماية بعد أن هدموا في الدنيا أسوارها بأيديهم.

كان بينهم وبين العذاب بابٌ اسمه التوبة، فلم يدخلوه. وكان لهم حصنٌ اسمه الإيمان، فهجروا إليه الطريق. فلما رأوا الملائكة طلبوا حجراً، ولكن زمن بناء الحصون قد مضى.

أعمالٌ تصير هباءً

ثم تُعرض أعمالهم في صورةٍ من أشد صور الخسران:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا).

لم تقل الآية إنهم لم يعملوا، بل أثبتت لهم عملاً؛ غير أن العمل حين يفصل عن الإيمان بالله والإخلاص له يفقد الروح التي تمنحه البقاء.

والهباء هو ذلك الغبار الدقيق الذي لا تكاد تراه إلا حين يدخل شعاع الشمس من نافذة، فيظهر متفرقاً في الهواء؛ له منظر، لكنه لا يُمسك، ولا يُجمع، ولا ينتفع به. وهكذا بعض الأعمال: تبدو عظيمةً في أعين الناس، وتُملأ المجالس حديثاً، لكنها عند الميزان الأخروي أخف من أن تستقر في كفة.

وقوله: (مَنْثُورًا) يزيد الصورة تشنُّتًا؛ فلا يبقى من الجهد الذي علَّقت عليه الآمال إلا ذراتٌ لا يستطيع صاحبها أن يسترد منها شيئاً.

إن العمل لا يخلد بضخامته الظاهرة، بل بالوجهة التي تحمله. قد يكون العمل صغيراً في أعين الناس، ثم يرفعه الإخلاص حتى السماء؛ وقد يكون عظيماً تصاحبه الأضواء، ثم تأكله إرادة السمعة فلا يبقى منه شيء..

كم هو مخيف أن يقضي الإنسان عمره في بناء صورةٍ لنفسه، ثم يكتشف أن الصورة لم تكن له عند الله! وكم هو جميل أن يعمل العبد في صمت، لا يكاد يراه أحد، ثم يجد يوم القيامة أن خبيثته الصغيرة صارت جبلاً من النور.

ليست النجاة أن تعمل كثيراً فحسب، بل أن تسأل قلبك وسط العمل: لمن هذا؟ من الذي أرجو نظره؟ وأي ثناء لو غاب لانكسر نشاطي؟

الإخلاص هو القوة الخفية التي تمنع العمل من أن يتحول إلى هباء.

حين يستقر أهل الجنة في ظلّ الأمان

وفي مقابل الهباء المنثور يأتي القرار الراسخ:

(أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا).

كلمة مستقرًّا تحمل كل ما افتقده الإنسان في الدنيا من ثبات وأمان. ففي الدنيا لا يكاد يستقر على حال؛ بين صحة وسقم، واجتماع وفقد، وأمن وخوف، ورجاء وقلق. حتى أجهل لحظاته يعبر فيها الزمن مسرعاً كأنه يذكره بأنها ليست دار قرار.

أما الجنة فهي المستقر الذي لا يطرد ساكنه، والبيت الذي لا يهدده خراب، والنعيم الذي لا يعقبه فراق.

ثم قال: (وَأَحْسَنُ مَقِيلًا). والقبولة موضع الراحة في منتصف النهار، واختيار هذه الكلمة يسكب على مشهد الجنة هدوءاً لطيفاً؛ كأن تعب الرحلة الأرضية كلها قد انتهى، وبلغ المسافرون مكان الراحة التي لا يعقبها نصب.

أهل الجنة لا يستريحون لأن أجسادهم أرهقتهم مسافة القيامة فحسب، بل لأن أرواحهم انتهت من رحلة الخوف الطويلة. انتهى قلق المصير، وانتهت مقاومة الشهوة، وانتهى أذى الجاهلين، وانتهى الاضطراب بين الرجاء والخوف. لقد صار وعد الله منزلاً يسكنونه.

يوم تشقق السماء

ثم يعلو المشهد من الأرض إلى السماء:

(وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا).

هذه السماء التي بدت للإنسان طوال عمره سقفاً ثابتاً مطمئناً تشقق. وما كان يظنه عنوان الاستقرار يدخل عليه التغير بأمر الله. عندئذ يعرف الإنسان أن الثبات لم يكن

للسماء في ذاتها، بل لمن أمسكها؛ وأن الكون مهما بدا عظيماً، فهو عبدٌ يتقاد ليومه المقدور.

والغمام الذي يرتبط في الحس بالمطر والظل واللين يأتي هنا في مشهد المهابة. تتشقق السماء عنه، وتنزل الملائكة تنزيلاً متتابعاً عظيماً. لم يعد الغيب وراء الحجاب، وانتهى زمن الذين كانوا يقولون: لولا أنزل علينا الملائكة.

(الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا).

كان الملك لله دائماً، فلماذا قال: (يَوْمَئِذٍ)؟

لأن الدنيا امتلأت بدعاوى الملك. قال هذا: أنا أحيي وأميت. وقال ذاك: أليس لي ملك هذه البلاد؟ وظن آخر أن المال يضع في يده مصائر الناس. أما في ذلك اليوم فتسقط الدعاوى، وينكشف الملك الذي لم يغب لحظةً، ولكن الأبصار كانت محجوبةً عنه بزينة السلطة المؤقتة.

ووصف الملك بأنه الحق؛ لأن كل ملكٍ سواه عارية تُسترد، وكل سلطانٍ بشري محدودٌ ومهددٌ بالزوال. أما ملك الله فلا يسبقه عدم، ولا يلحقه فناء، ولا ينازعه أحد.

ثم قال: (لِلرَّحْمَنِ).

وفي قلب مشهد القيامة المهيبة يجيء اسم الرحمن. فالذي يقضي بين عباده هو الرحمن، والذي حذرهم قبل القضاء هو الرحمن، والذي أرسل الرسل وفتح أبواب التوبة هو الرحمن. حتى العدل الذي ينزل بالجرمين ليس منفصلاً عن الرحمة؛ فن الرحمة بالمظلوم ألا يتساوى بظالمه، ومن الرحمة بالحقيقة ألا تترك نهياً للتزوير إلى الأبد.

اليد التي عضها الندم

ثم تقترب السورة من إنسانٍ واحد، بعد أن كانت السماء كلها تتشقق:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا).

لا يعضُّ يداً واحدة، بل يعضُّ يديه؛ لأن الندم تجاوز كل حدود الاحتمال. تلك اليدان اللتان كانتا أدوات اختياره أصبحتا موضع عقوبته النفسية؛ بهما صاح رفقة السوء، وبهما أعرض، وبهما ربما كتب أو أعان أو أشار، والآن يعضهما كأنما يريد أن ينتزع ماضيه منهما.

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا).

لم يقل: اتخذت الرسول سبيلاً، بل: (مَعَ الرَّسُولِ). فالرسول ﷺ سار في الطريق أولاً، ومن أراد النجاة سار معه. الإسلام ليس إعجاباً بعيداً بالني، بل صحبةً لمنهجه، واقتفاءً لأثره، واستقامةً على السبيل الذي دل عليه.

وما أشد كلمة: سبيلاً! لقد كانت النجاة طريقاً مفتوحاً، لا لغزاً مغلقاً؛ لكنه رأى الطريق ولم يسلكه، وعرف الدليل ولم يتبعه.

ثم ينفجر الندم باسم الصديق الذي أضله:

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا).

قال: فلاناً، ولم يسمّه؛ ليظل الموضع مفتوحاً لكل اسمٍ يمكن أن يسكنه. فلانٌ قد يكون صاحباً، أو زعيماً، أو مشهوراً، أو مفكراً، أو جماعةً خاف الإنسان أن يخالفها. قد يكون كلٌّ من منحه حق تشكيل مصيره بعيداً عن الله.

والخليل هو من يتخلل حبه القلب، فلا يقف عند هامش الحياة. ولهذا كانت الصبغة من أخطر أبواب المصير؛ لأن الصديق لا يعطيك رأياً فقط، بل يعيد تشكيل ذائقتك، ويخفف في نفسك قبح بعض الأشياء، ويعظم أشياء أخرى، حتى تستيقظ يوماً فتجد أنك صرت تشبهه من حيث لم تشعر.

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي).

الأم هنا مضاعف: لم يكن الذكر بعيداً عنه، بل جاءه. طرق بابه، واقترب من قلبه، وربما لاحت له لحظة هداية؛ لكن الخليل جذبه بعيداً.

وكم من إنسان لم يمنعه من الحق غموضه، وإنما منعه خوفه من رفاقه: ماذا سيقولون إن تاب؟ كيف سينظرون إليه إن استقام؟ أيسخرون منه إن غير طريقه؟ فيبيع رضوان الله كيلا يخسر مجلساً سينفض عنه يوماً.

ثم يأتي الحكم الذي يعري كل وعدٍ شيطاني:

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا).

لم يقل: مضلاً فقط، بل خذولاً. يدفعك إلى الخافة، ويزنّ لك السقوط، فإذا سقطت تبرأ منك. يشجعك ساعة الشهوة، ويتركك وحدك ساعة الحساب. وكل طريق يبدأ بتزيين المعصية ينتهي بخذلان صاحبها.

الشكوى التي تهزُّ القلبُ

(يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)

هنا يسكن صوت المعاندين، ويرتفع صوت الرسول ﷺ شاكيًا إلى ربه:

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا).

إنها من أوجع آيات السورة.

قال: (يَا رَبِّ)، لأن الجرح الذي يصنعه هجر القرآن لا يُشكى إلا إلى منزل القرآن. وشكواه ليست شكوى انتقامٍ لنفسه؛ فقد أُوذِيَ وسُخِرَ منه وأُتِمَّ، لكن السورة تسجل شكواه من شيءٍ أعظم: أن قومه هجروا الكتاب الذي جاء لينقذهم.

وتأمل قوله: (اتَّخَذُوا). لم يكن الهجر حادثةً عابرة، بل صار قرارًا وطريقة حياة. اتخذوا القرآن مهجورًا، كأنهم بذلوا جهدًا في إقامة المسافة بينهم وبينه.

وهجر القرآن أوسع من ترك تلاوته. قد يُتلى اللفظ ويُهجر المعنى، وقد تُزَيَّن به المجالس ويُبعد عن القرارات، وقد يُحفظ في الصدر ولا يُسمح له أن يحكم الهوى. يُهجر حين لا يُتدبر، وحين لا يُطاع، وحين يُطلب الهدى في كل مكانٍ إلا فيه، وحين تصبح صلته بالحياة احتفاليةً لا قيادية.

أقصى أنواع الهجر أن يكون القرآن قريباً من اليد بعيداً عن القلب؛ حاضراً في البيت غائباً عن الرؤية، يُستفتح به ولا يُحتكم إليه، يُطلب منه أن يبارك الطريق بعد أن اختار الإنسان طريقه بنفسه.

والقرآن لا يريد منك أن تزوره دقائق ثم تعود كما كنت. إنه يريد أن يعيد ترتيب أعماقك: أن يغير مقاييس الحب والكراهية، والخوف والرجاء، والريح والخسارة. يريد أن ينتقل من صوتٍ تسمعه إلى بصيرةٍ ترى بها.

ثم يأتي التثبيت:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا).

وجود العدو لا يعني أن الطريق خطأ، ولا أن صاحب الرسالة متروك. للحق أعداء؛ لأن النور يفضح المصالح التي تنمو في الظلام. ومن يحمل رسالة لا ينبغي أن يقيس صدقها برضا الجميع؛ فالأنبياء أنفسهم لم يسلموا من الخصومة.

لكن الآية لا تترك حامل الحق وحيداً أمام أعدائه:

(وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا).

هدايةً حتى لا تضيع الطريق تحت ضغط العداوة، ونصرةً حتى لا يسحقك الخوف من أهل الباطل. أنت تحتاج إلى الهداية قبل النصر؛ فما أشد أن ينتصر الإنسان في معركة سلك إليها الطريق الخطأ! ولهذا قدمت الآية الهادي على النصير: يهديك إلى الحق أولاً، ثم ينصرك وأنت عليه.

فإذا كان الله هاديك، لم تضرك كثرة الطرق الملتوية.
وإذا كان الله نصيرك، لم توحشك قلة السائرين معك.

المحطة الرابعة

الوحي الذي ينزل على مهلٍ ليبي قلباً لا يتصدّع

بعد أن عرضت السورة شكوى الرسول ﷺ من هجر القرآن، عادت إلى شبهة جديدة من شبهات المعاندين:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً).

كانوا يريدون كتاباً يهبط دفعةً واحدة، كأن الغاية من الوحي أن يُسَلِّمَ نصّاً مكتملاً فحسب. لكن القرآن لم يكن كتاباً نزل ليملاً الرفوف؛ لقد نزل ليبي إنساناً، وينشئ أمةً، ويرافق معركةً، ويواسي ألماً، ويحيب عن سؤال، ويكشف نفاقاً، ويثبت قدماً اضطربت تحت شدة الطريق.

ولهذا جاء الجواب:

(كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا).

لم يقل: لنثبت به حجتك، مع أن القرآن حجة؛ ولم يقل: لنقوي به موقفك، مع أنه قوة؛ وإنما قال:

(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ).

فالرسالة العظيمة تحتاج إلى قلبٍ ثابت يحملها. والحقيقة مهما كانت واضحةً تحتاج في طريقها إلى فؤادٍ يتلقى الألم دون أن يتخلّى عنها. وكان القرآن ينزل على قلب النبي ﷺ في

اللحظة التي يحتاج فيها إلى النور؛ تأتي الآية كأنها يدٌ من السماء تمسح عنه عناء الطريق،
وتقول له: إنك بعين الله، وإن تكذيبهم لا يغير الحقيقة، وإن العاقبة ليست للصخب
العابر، بل للوعد الثابت.

وتعبير الفؤاد أعمق وقعاً من مجرد القلب؛ فهو القلب حين يشتد تأثيره وتوقد مشاعره.
كأن الوحي ينزل إلى موضع الألم نفسه، فلا يكتفي بإقامة الدليل في العقل، بل يسكب
السكينة في مركز الوجع.

إن التثبيت لا يعني ألا يحزن المؤمن؛ فقد يحزن أشد الحزن، ولكنه لا ينكسر عن
طريقه. ولا يعني ألا يتعب؛ فقد يثقل عليه حمل الرسالة، ولكنه لا يلقيها. الثبات ليس
غياب الاهتزاز البشري، بل أن يظل الأصل راسخاً في أعماقك مهما ارتجفت الأغصان.

وفي هذا عزاءٌ لكل من يحمل حقاً ثم يتأذى في سبيله: أنت لا تحتاج دائماً إلى أن يتغير
العالم حولك حتى يثبت قلبك؛ قد يثبت الله قلبك بكلمةٍ منه، فتغدو أشد من الظروف
التي تحاصرك.

وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا

الترتيل ليس مجرد تحسين الصوت، وإن كان جمال الصوت من حسن التلاوة؛ إنه أداء
القرآن على مكثٍ وتبيين، ومنحه زمنه الكامل في النفس. فالقرآن لا يكشف كنوزه
للقلب العابر الذي يلاحق النهاية، بل للقلب الذي يقيم عند الآية، ويدعها تهبط إلى
أعماقه طبقةً بعد طبقة.

ومن لطائف التعبير أن الله قال: (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا)، فجعل نزول القرآن نفسه مرتباً متدرجاً، كما تكون تلاوته مرتلةً متأنية. نزل القرآن على مهل؛ لأن بناء النفوس لا يتم دفعةً واحدة. تتغير الأفكار أسرع مما تتغير الطبائع، وقد يعرف الإنسان الحق في لحظة، ثم يحتاج عمراً حتى يصير الحق خلقاً مستقراً فيه.

إن الله الذي خلق النفس يعلم أنها تنمو بالتدرج. ولهذا لم يطلب من المؤمن أن يقفز فوق بشرته، بل أن يسير إلى ربه ثابتاً؛ فإذا عثر نهض، وإذا فتر استعاد زاده، وإذا أظلمت عليه الطريق عاد إلى القرآن.

وكم نخطئ حين نريد إصلاحاً كاملاً في لحظة! نستعجل الثمرة قبل أن تضرب الجذور في الأرض، ونقسو على أنفسنا حين لا نصير في يومٍ واحد كما نتنى. أما الوحي فيعلنا فقه البناء: آية آية، وخطوة خطوة، حتى يتشكل القلب على مهل، ولكن على أساسٍ لا تقتلعه الرياح.

كل شبهة تأتي وفي القرآن جوابها الأقوم

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا).

كانوا يأتون بالشبهات في صورة أمثالٍ واعتراضات يظنونها محكمة، فيأتي القرآن لا بجوابٍ يساوي باطلهم فحسب، بل بالحق الذي يكشف أصل الخلل، وبالبيان الأحسن الذي يضع كل شيء في موضعه.

إن الباطل قد يملك سؤالاً لامعاً، لكنه لا يملك جواباً يبني الحياة. وقد يستطيع أن يربك القلب لحظةً، غير أنه لا يستطيع أن يمنحه السكينة. أما القرآن فلا يطارد فروع الشبهة

فحسب؛ إنه ينفذ إلى الجذر الذي أُنبت: الكبر، أو الهوى، أو الخوف، أو العبودية
للمألوف.

قال: (جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ)، فالحق ليس من صناعة الرسول ﷺ، وإنما يأتيه من ربه. وفي ذلك تحريرٌ للداعية من وهم الاعتماد على ذاته؛ ليس مطلوباً منه أن يخترع النور، بل أن يحمله بأمانته. الهداية من الله، والحق من الله، والبيان من الله؛ وإنما شرف الإنسان أن يكون موضعاً أميناً لمرور النور.

الوجوه التي سُحِبَتْ لأنها رفضت أن تسجد

ثم تتقنا السورة من مجال الجدل إلى مآل أصحابه:

(الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا).

كان الوجه في الدنيا موضع الكرامة، وكانوا يرفعونه تكبراً عن الحق؛ فإذا هم يُحْشَرُونَ عليه إهانةً. والجزاء يحمل صورة الجريمة: لما أبوا أن يضعوا وجوههم لله ساجدين، سُحِبُوا عليها إلى جهنم.

لقد ظنوا أنهم أعرف بالسبيل، واتهموا الرسول بالضلال، فجاء الحكم الإلهي: هم (أَضَلُّ سَبِيلًا). فالطريق لا يُقاس براحة بدايته، بل بنهايته. قد يبدو طريق الهوى واسعاً ومفروضاً باللذة، لكنه يضيق في آخره حتى لا يجد سالكه منفذاً. وقد يبدو طريق الحق شاقاً، لكنه يتسع كلما مضيت فيه حتى يفتح على الجنة.

ليس أضلّ الناس من لم يعرف الطريق فقط، بل من عُرِض عليه الطريق ثم أعرض، ونُصب له الدليل ثم اختار التيه.

مواكب المكذبين

حين يعيد الباطل عباراته ويعيد التاريخ نهاياته

تمضي السورة بالرسول ﷺ بين مشاهد التاريخ، لتقول له: لست أول رسولٍ ووجهه بالتكذيب، وهذه العداوة التي تلقاها ليست أمرًا جديدًا في طريق النبوة.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا).

أعطى الله موسى الكتاب، وأعطاه معه أخاه هارون. ففي الطريق أعباءٌ تحتاج إلى سند، وحتى النبوة التي تستمد مددها من السماء لم تُلغ قيمة الأخوة في الأرض.

كم هو بديع أن يكون من نعم الله على صاحب الرسالة أن يجعل معه أخًا يشد أزره! فالفكرة تحتاج إلى قلبٍ يحملها، والقلب قد يحتاج إلى قلبٍ آخر يؤنسه. وليس طلب العون ضعفًا، بل معرفةً بطبيعة الإنسان الذي خلقه الله ليقوى بأخيه.

ثم يختصر القرآن قصة القوم في نهايتها:

(فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا).

كلمتان تنطويان على انهيار عالم كامل. كان لهم سلطانٌ وصخبٌ ومكر، ثم صار كل ذلك خبراً يتلى. وما أسرع ما يتحول المتجبر من رهبةٍ تملأ صدور معاصريه إلى عبرةٍ تمر بها الأجيال!

ثم قوم نوح:

(وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً).

قوم نوح كذبوا رسولاً واحداً، لكن الآية قالت: (كَذَّبُوا الرُّسُلَ)؛ لأن الرسائل في أصلها حقيقة واحدة. من كذب نبيّاً لأنه نبي فقد كذب مبدأ النبوة كله، ومن رفض الحق في صورة من صوره الصافية فقد أعلن خصومته للنبع الذي جاءت منه سائر الرسائل.

كان الماء من حولهم آية حياة، ثم صار حين جاء أمر الله أداة هلاك. والكون الذي يخدم الإنسان مطيعٌ لله قبل أن يكون مسخراً للإنسان؛ فإن جاء أمر ربه تحول المألوف إلى جندٍ من جنوده.

(وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً).

لقد انتهت حياتهم، لكن دلائلهم لم تنته. صاروا آيةً لأن التاريخ ليس مقبرة أحداث، بل معرض سنن. تمر به لترى كيف يبدأ الاستكبار كلمةً ساخرة، ثم ينتهي غرقاً؛ وكيف يبدو المؤمنون أول الأمر قلةً ضعيفة، ثم تصبح سفينتهم هي مستقبل البشرية.

ثم عاد وثمود وأصحاب الرس:

(وَعَادًا وَثُمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا).

نتلاحق الأسماء، ثم تمتد العبارة إلى أمم لم تُسمَّ: (وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا). وكأن التاريخ أكبر من أن تستوعب السورة أسماء الهالكين جميعاً. كم من حضارة ظنت أنها آخر القوة، ثم انطفأت حتى لم يبق من أهلها اسم! وكم من جبارٍ ملأ زمنه خوفاً، ثم لم يعد يملك في الأرض قبراً معروفاً!

لكنهم لم يهلكوا بغير بيان:

(وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ).

أقيمت الحجج، ونُصبت العلامات، وتكررت المواظ. فالله لا يعاجل عباده قبل الإنذار، ولا يؤاخذهم على غموض الطريق؛ بل يرسل إليهم من النور ما يكفي للرجوع.

ثم قال: (وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا). والتبير هو التكسير والإهلاك؛ كأن البناء الباطل مهما ارتفع يحمل في أساسه قابلية الانهيار. فالظلم لا يحتاج دائماً إلى عدو يهدمه من الخارج؛ فيه من التناقض والفساد ما يجعله يأكل نفسه من الداخل حتى تأتي لحظة السقوط.

مدينةٌ مرّوا عليها ولم تمرّ بهم عظتها

ثم تضع السورة أمام قریش شاهداً كانوا يعرفونه:

(وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلًا كَانُوا لَا يَرْجُونَ
نُشُورًا).

كانوا يمرون بديار قوم لوط في رحلاتهم، ويرون آثار الهلاك. لم تكن العبرة غائبة عن
أعينهم، لكن العيون وحدها لا تصنع البصيرة.

(أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا).

بلى، كانوا يرونها، لكن رؤية المكان شيء ورؤية المعنى شيء آخر. قد تمر بالآية كل يوم
حتى تفقد دهشتك بها، وقد تشاهد مصارع الظالمين ثم تعود إلى الظلم نفسه؛ لأن القلب
لم يعتبر.

ولهذا صححت الآية العلة:

(بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا).

حين يغيب البعث تتحول آثار التاريخ إلى حجارة صامتة. يرى الإنسان الخراب ولا يسأل
عن الخطيئة التي أنجبته، ويرى النهاية ولا يتخيل أن له نهايةً مثلها.

إن العظة لا تسكن المشهد نفسه، بل القلب الذي يؤمن بأن السنن تتكرر، وأن الله الذي
حاسب الأولين لا يغيب عن الآخرين.

السخرية حين تعجز عن البرهان

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخَذُوكَ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا).

بلغ عجزهم أن جعلوا الرسول ﷺ مادةً للسخرية، والسخرية كثيراً ما تكون السلاح الأخير لمن أفلس من الحجة؛ لا يستطيع أن يرد الفكرة، فيحاول أن يُسقط هيبة صاحبها في أعين الناس.

قالوا: (أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا)، وأشاروا إليه باستخفاف، كأنهم يقولون: أهذا تحديداً؟ كانوا يرون أنفسهم أكبر من أن يتبعوه، مع أن الفارق الحقيقي لم يكن في المال ولا في الجاه، بل في قلب اصطفاه الله وقلوب استعبدتها الأهواء.

ثم اعترفوا من حيث أرادوا الإنكار:

(إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا).

سمّوا الهداية ضلالاً، وسمّوا تشبّثهم بالأصنام صبراً! وهكذا يفعل الهوى باللغة: يقلب أسماء الأشياء كي يستطيع الإنسان أن يعيش مع باطله مطمئناً. قد يسمّى العناد ثباتاً، والجبن حكمةً، والنفاق مرونةً، والحرص على الدنيا مسؤوليةً، والتنازل عن الحق واقعيةً.

إن أخطر انتصارات الباطل أن ينجح في تغيير القاموس؛ لأن الإنسان إذا سمّى مرضه صحةً فلن يبحث له عن علاج.

قالوا: (لَوْلَا أَنَّ صَبْرَنَا عَلَيْهَا)، فافتخروا بالصبر على الضلال. وليس كل صبر فضيلة؛ فقد يصبر الإنسان على باطل ألفه، ويقاوم كل نور يهدده. إنما قيمة الصبر من قيمة ما تصبر عليه؛ فالثبات على الخطأ إصرار، والثبات على الحق عبادة.

وسياتي اليوم الذي تنقلب فيه المقاييس:

(وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا).

هناك تنتهي لعبة الأسماء، ويظهر الضلال باسمه الحقيقي.

أخطر الأصنام

الهوى حين يجلس في مقام الإله

ثم تأتي آية تكشف أعمق مأساة في النفس البشرية:

(أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا).

لم يقل: اتخذ هواه إلهاً، وإنما قال:
(اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ).

كأن الإله الذي اختاره وأطاعه ورجع إليه في كل أمر هو ما تهواه نفسه. لا يسأل: ماذا يريد الله؟ بل يسأل: ماذا أريد أنا؟ ثم يبحث بعد ذلك عن حجة دينية أو عقلية تبارك ما اختاره سلفاً.

الهوى لا يأمر الإنسان دائماً بصوتٍ فاضح. قد يرتدي ثوب المصلحة، أو الحرية، أو التأويل، أو الضرورة. وقد لا ينكر صاحبه الوحي بلسانه، لكنه يعيد تفسيره في كل مرة حتى يوافق شهوته. فإذا وافق النصُّ هواه قبله، وإذا خالفه بحث عن منفذٍ يعطله.

وهنا تتحول الذات إلى معبود: رغبتهَا أمر، ونفورها نهي، ورضاها غاية. وقد يتخلص الإنسان من صنم الحجر، لكنه يظل ساجداً لصنمٍ محمول في داخله.

ليس التحرر أن تفعل كل ما تشاء؛ فقد تكون مشيئتكَ هي السلسلة التي تقيدك. الحرية الحقيقية أن تملك القدرة على مخالفة هواك حين يخالف الحق. أن تقول لنفسك: لا، مع أنها تصرخ فيك: نعم. أن تكون أنت قائد رغباتك، لا دابتهَا التي تحملها حيث شاءت.

ثم يخفف الله عن رسوله ﷺ ثقل الحرص عليهم:

(أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا).

لست موكلاً بإكراه قلبٍ اختار أن يجعل هواه إلهًا. عليك البلاغ، أما فتح القلوب فييد الله. وهذه رحمةٌ بكل صاحب رسالة: لا تحمل نفسك وزر من أبى، ولا تجعل إعراض الناس يلبثهم روحك. ابذل النور، لكن لا تظن أنك تملك العيون.

حين تُعطلُّ أدوات الهداية

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا).

لم تنفِ الآية عنهم وجود الآذان والعقول، بل نفت عنهم الانتفاع بها. إنهم يسمعون الصوت ولا يسمعون النداء، ويمتلكون العقل لكنهم يجعلونه خادماً للهوى بدل أن يكون دليلاً إلى الحق.

وشبّوها بالأنعام؛ لأنها تسير بدافع حاجتها المباشرة: طعام، وشراب، وراحة. لكنها معذورة؛ فلم تُخلق لحمل الأمانة، ولم تُمنح وحيّاً تُدبره. أما الإنسان الذي اختزل وجوده في الشهوة، مع أنه أوتي قلباً وعقلاً ورسالة، فهو أضل سبيلاً؛ لأنه هبط باختياره عن المقام الذي أعد له.

الأنعام لا تزعم أنها تصنع حضارةً بينما تلتهم الضعفاء، ولا تكتب فلسفةً لتبرر اقتراسها، ولا تزين أنانيتها بالشعارات. أما الإنسان فقد يستخدم العقل نفسه ليشرعن السقوط؛ فيصنع من ذكائه حجاباً عن الحكمة.

ليست إنسانية المرء في أن يأكل ويعمل ويتكاثر، فهذه وظائف تشاركه فيها سائر المخلوقات؛ وإنما إنسانيته في السؤال الذي يتجاوز التراب: من خلقتني؟ ولماذا أنا هنا؟ وإلى أين أمضي؟ وما الحق الذي ينبغي أن أعيش له ولو خالف هواي؟

وهكذا يبلغ الفرقان في هذه الآية قلب مهمته: أن يفرّق بين صورة الإنسان وحقيقته، بين من يحمل ملامح البشر ومن استيقظت فيه أمانة البشرية.

فالإنسان لا يرتفع بما يملك، بل بما يعبد.
فإن عبد الرحمن، تحرر من نفسه والعالم.
وإن عبد هواه، صار أسيراً ولو ظن أنه يفعل ما يشاء.

المحطة الخامسة

حين يتحوّل الكونُ إلى محراب

بعد أن كشفت السورة ظلمات النفس حين تتخذ الهوى إلهاً، تخرج بنا إلى الفضاء الفسيح؛ كأنها تنقل العين من ضيق الذات إلى سعة الملكوت، ومن اضطراب الجدل إلى سكينه الآيات المبثوثة في كل ناحية.

لقد طال بنا المقام بين أصوات المكذبين: اقترأء، واعتراض، وسخرية، وعناد. وها هي السورة تأخذ القلب برفقٍ إلى مشاهد لا تجادل، لكنها تشهد؛ إلى ظلٍ يمتد، وشمسٍ تدل، وليلٍ يلبس الأرض، ونومٍ يوقف صخب الإنسان، ورياحٍ تحمل بشائر الرحمة، وماءٍ ينزل من السماء فيوقظ التراب.

كأنها تقول: إذا أتعبك صخب البشر، فأنصت إلى هدوء الكون؛ فإن الأشياء من حولك تعرف ربها، وإن جهلته القلوب المستكبرة.

الظلُّ الممدود... آية العناية الصامتة

(أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا).

تبدأ الآية بهذا السؤال الحاني:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ).

والإنسان لا يرى الله في الدنيا، وإنما يرى آثار ربوبيته، فتدله الصنعة على الصانع، والتدبير على المدير، والرحمة المتناثرة في الوجود على الرحمن. كأن المعنى: أَلَمْ تَرَ إِلَى فَعَلِ رَبِّكَ فِي الظل، وإلى لطفه وهو يمدّه فوق الأرض؟

لم يقل: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ امتد الظل، بل نسب الفعل إلى الله: (كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ). فالمؤمن لا يرى الأحداث الطبيعية منفصلةً عن خالقها؛ لا تحجبه السنن عن مسننّها، ولا تنسيه الآلية الإرادة التي أقامتها.

الظلُّ نعمةٌ لا ترفع صوتها. يمر به الناس كل يوم فلا يشعرون أنه عنايةٌ تنزل عليهم في صورة برودةٍ وسكينة. وما أكثر النعم التي لا نراها لأنها لا تفاجئنا! نلتفت إلى الخارق، وننسى أن انتظام المألوف نفسه خارق دائم.

لوبي ظل ساكناً لا يتغير، لاختل نظام الحياة، ولكن الله جعله يتحرك بحركة الضوء، ثم جعل الشمس عليه دليلاً؛ فبالضد يظهر الضد، وبالنور تُعرف حدود الظلال.

وفي هذا معنى يتجاوز المشهد: كم من شيء لا تعرفه إلا بضده! لا تعرف لذة الأمان إلا بعد خوف، ولا قيمة العافية إلا عند المرض، ولا دفء القرب إلا بعد وحشة، ولا جمال النور إلا حين تعبر شيئاً من الظلام.

ثم قال:
(ثُمَّ قَبْضَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا).

ما ألطف هذا القبض! لا يزول الظل فجأةً فيفزع المشهد، بل يتراجع قليلاً قليلاً. وكأن يد القدرة تجمع بساطاً ممدوداً على الأرض في رفيقٍ لا تكاد العين تدرك حركته.

والتعبير بـ(إَيْنَا) يردُّ الظاهرة كلها إلى مالكها؛ فالظل خرج بأمره، وامتد بأمره، وعاد إليه بأمره. وكل شيء في الوجود ممدودٌ بقدر، ومقبوضٌ بقدر: الأعمار، والقوى، والأرزاق، والفرص، والعلاقات. يمدّها الله، ثم يقبضها قبضاً قد يكون يسيراً لا نشعر به إلا وقد تغيرت الأشياء.

كم من مرحلةٍ في العمر انسحبت من بين أيدينا كما ينسحب الظل! لم نر لحظة رجليها، ثم التفتنا فإذا طفولتنا بعيدة، وإذا وجوهٌ كانت تملأ أيامنا قد صارت ذكرى. ولهذا يعلمنا الظل ألا نغتر بالممدود؛ فما امتد بأمر الله يمكن أن يُقبض بأمره. وأن نشكر النعمة وهي ممدودة، قبل أن نبحث عن دفعها في الذاكرة.

الليل لباسٌ والنوم انقطاعٌ صغير

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا).

ثلاث صور قصيرة ترسم دورة الوجود الإنساني كلها: لباس، وسبات، ونشور.

الليل لباس؛ لأنه يستر الأجساد والطرق والبيوت تحت عباءته الداكنة. يطوي تفاصيل العالم، ويكفُّ الأبصار عن ملاحقة الأشياء، ويمنح الكائنات فرصة أن تعود من تشتهاها الخارجي إلى سكونها الداخلي.

وكما يستر اللباس الجسد، يستر الليل ضعف الإنسان. في ظلامه يخلع الناس وجوه النهار، وتنطفئ ضوضاء الأدوار، ويعود القوي والضعيف، والغني والفقير، والمشهور والمجهول إلى حالٍ واحدة: أجسادٌ متعبة تبحث عن موضع تنام فيه.

ثم جعل النوم سباتاً؛ أي قطعاً للحركة وانفصلاً عن شواغل اليقظة. يضع الإنسان رأسه وقد ملاً الدنيا تديراً وقلقاً، ثم ينقطع عنها ساعاتٍ، فتظل الأرض تدور، وتطلع النجوم، وتجري الأرزاق، ولا ينهار الكون لأنه نام.

إن النوم موعظةٌ يوميةٌ لكبرياء الإنسان. كل ليلة يسلم وعيه من غير أن يملك حراسته، ويغيب عن الأشياء التي ظن أنها لا تقوم بدونه، ثم يستيقظ ليجد أن تدبير الله لم يتوقف.

والنوم موتٌ صغير؛ تنقطع فيه الإرادة عن كثيرٍ من سلطانها. فلا يستطيع النائم أن يحمي نفسه من خاطر، ولا أن يأمر قلبه بالنفض، ولا رثيته بالتنفس. إنه موضوعٌ في عناية الله، وإن لم يشعر.

ثم قال: (وَجَعَلَ النَّهَارَ نَشُورًا).

لم يقل: ضياءٌ فحسب، بل نشوراً. يبعث الناس من مضاجعهم، وينتشرون في الأرض بعد سكونهم. وكل صباح نموذجٌ مصغر من القيامة: نومٌ يشبه الموت، ثم نداءٌ خفي يعيد إلى الجسد وعيه، فيقوم الإنسان من فراشه كما سيقوم يوماً من قبره.

من كان يشهد بعثه الصغير كل صباح، كيف يستبعد البعث الأكبر؟ والذي يعيد إليك وعيك بعد أن غبت عن نفسك قادرٌ أن يعيدك بعد أن يغيب جسدك في التراب.

وهكذا يصبح الصباح أكثر من موعدٍ للعمل؛ يصبح شهادةً يوميةً بأن الله يحيي بعد الموت، وأن الظلام مهما طال يحمل في جوفه فجرًا ينتظر الإذن.

الرياح التي تحمل رائحة الرحمة

(وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا).

تتحرك الرياح في الآية كرسولٍ تسبق المطر. تأتي إلى الأرض المتعبة قبل نزول الماء، فتحمل إليها رائحة الغيث، وتحرك في قلوب أهلها رجاءً قد سبق القطرات.

سمّاها (بُشْرًا)، لأنها لا تحمل الماء نفسه فقط، بل تحمل بشارته. والرحمة قد تبدأ قبل وصول العطاء؛ تبدأ بأمانةٍ يرسلها الله إلى القلب كيلا يئأس: نسمةٌ تتغير، أو سحابةٌ تظهر في الأفق، أو كلمةٌ توقف الرجاء.

ثم سَمِيَ المطر رحمته؛ فالماء ليس مجرد تركيبٍ مادي، بل صورة من صور الرحمة الإلهية. ينزل على الأرض دون أن تملك استدعاءه، ويتوزع في مسالكها، ويدخل في جذور النبات، ويصعد في سيقانه، ثم يظهر لوناً وطعماً وثمرًا.

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا).

ليس طاهرًا في نفسه فحسب، بل مطهّرًا لغيره. يغسل الأجساد والثياب والطرق، لكنه في المعنى يذكر بماء الوحي الذي ينزل من سماء الهداية ليغسل داخل الإنسان.

كما أن الأرض تتراكم عليها الأتربة حتى يأتي المطر، تتراكم على القلب غبار الشهوات، ووحشة الذنوب، وقسوة الغفلة، حتى تنزل عليه آيةٌ صادقة، أو توبةٌ خاشعة، أو دعةٌ في خلوة، فيعود نقيًا كأنما خلق الآن.

وكم يشبه القرآن المطر! كلاهما ينزل من علو، وكلاهما حياة، وكلاهما يكشف حقيقة الأرض التي يقع عليها. فالأرض الطيبة تُخرج نباتها، والأرض الخبيثة لا تُخرج إلا نكدًا؛

والقلب الحي يزداد بالقرآن إيماناً، أما القلب المريض فقد لا يزيده النور إلا نفوراً لأنه أغلق منافذه.

الماء الذي يُرسل إلى الأرض الميتة

(لُنْحِي بِهِ بِلْدَةً مَيِّتًا وَسُقِّيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ كَثِيرًا).

تأمل قوله: (بِلْدَةً مَيِّتًا). الأرض موجودة، لكنها بلا ماء تُسمى ميتة؛ لأن الوجود المجرد ليس حياةً كاملة. وكذلك الإنسان: قد يتحرك ويأكل ويتكلم، لكن قلبه بلا وحي قد يكون بلدة ميتة، طرقاتها عامرة وأعماقها قاحلة.

ينزل الماء فلا يجادل الأرض، ولا يعاتبها على موتها، بل يتسلل إلى شقوقها، ثم تبدأ المعجزة في صمت. تنتفخ البذور المدفونة، وتشق التراب رؤوس خضراء، ويتحول اللون اليباس إلى حياة.

وهكذا تصنع الرحمة بالقلوب. قد يبدو القلب قاسياً حتى تظن أن لا حياة فيه، ثم تصيبه قطرة هداية في ساعة صدق، فتستيقظ بذور كانت محتبئة تحت ركام السنين. فلا تيأس من قلب ما دام الله ينزل الماء، ولا تحكم على إنسانٍ من فصل جفافٍ عابر؛ فقد يأتيه ربيع لا تعرف مواعده.

وقدم الأنعام على الناس في السقيا: (أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ كَثِيرًا)، وفي ذلك ملحٌ من سعة الرحمة؛ فالعناية الإلهية لا تتوجه إلى الإنسان وحده، بل تشمل المخلوقات التي لا تملك أن ترفع أكفها ولا أن تصوغ دعاها.

كم من طائرٍ في قفر، ودابةٍ في واد، ومخلوقٍ لا يعرفه البشر، يسوق الله إليه رزقه بقطرة. فإذا كانت رحمته لا تنسى كائنًا مجهولًا في شقٍّ بعيد، فكيف ينسى عبدًا عرفه ودعاه ورجاه؟

آيةٌ يصرفها الله بين الناس

(وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَابِئِ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا).

يصرف الله الماء بين البلاد؛ فتمطر أرض، ويتأخر المطر عن أخرى، ويكثر هنا ويقل هناك. ليس الأمر حركةً عمية، بل تدبيرٌ يجعل من توزيع الماء بابًا للتذكر.

فالنعمة إذا تكررت بالنمط نفسه قد تنام عنها الحواس، أما حين تأتي وتغيب يدرك الإنسان حاجته. يعرف قيمة الماء حين تظمأ الأرض، وقيمة الأمن حين يقترب الخوف، وقيمة الصحة حين يمر به الألم.

لكن أكثر الناس أبوا إلا كفورًا. لم يقل: جهلوا فحسب، بل (أبى)؛ وفي الإباء عنادٌ داخلي. تأتي النعمة فينسبوننا إلى المصادفة أو مهارتهم، ويغيب عنهم أن الأسباب نفسها مخلوقة، وأن الذكاء الذي استعملوه عطية، وأن الفرصة التي صادفوها تدبير.

الكفر بالنعمة لا يكون دائمًا بإنكارها باللسان، بل قد يكون بأن تستعمل العطية في معصية معطيها، أو أن ترى نفسك أهلاً لها دون فضلٍ سابق، أو أن يلهيك حضورها عن المنعم.

أما الشكر فليس كلمة تقال بعد الامتلاء فحسب؛ إنه أن ترى يد الله قبل الشيء، وفي الشيء، وبعد الشيء. أن تتحول النعمة في يدك إلى طاعة، لا إلى حجاب.

الجهاد الكبير

حين تكون الكلمة ميداناً للمقاومة

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا).

كان قادراً سبحانه أن يبعث في كل قرية رسولاً، لكنه اختار محمداً ﷺ رسولاً للعالمين، وحمله كتاباً يتجاوز الأزمنة والأمكنة.

ثم جاء الأمر:
(فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ).

لم يقل: فلا تخفهم فقط؛ لأن الخطر لا يبدأ دائماً من الهزيمة الظاهرة، بل قد يبدأ من تنازل صغير يطلبه الباطل باسم التفاهم، ثم يتسع حتى تفقد الرسالة ملامحها. كانوا يريدون منه أن يلين لهم في أصل الحق، وأن يترك بعض ما جاء به ليرضوا عنه.

لكن الرسالة التي تخني للباطل كي يقبلها تفقد سبب وجودها. والحق لا يحتاج إلى إذن من خصومه حتى يكون حقاً.

ثم قال:
(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا).

الضمير في (به) يعود إلى القرآن. فالقرآن هو أداة هذا الجهاد الكبير: به تُكشف الشبهات، وتُهدم الأصنام الفكرية، وتُحرر النفوس من عبودية البشر، وتُعاد صياغة المفاهيم التي شوَّهها الهوى.

وسماه جهاداً كبيراً؛ لأن تغيير ما في الضمائر أعمق من تغيير ما على السطوح. قد تفتح أرضٌ ويبقى أهلها أسرى لأوهامهم، أما إذا فتح الوحي القلب فقد تغير منبع السلوك كله.

إن حمل القرآن إلى العالم ليس ترديداً لألفاظه وحدها، بل إظهاراً لرؤيته في العدل والرحمة والكرامة والعبودية. وهو جهادٌ يحتاج إلى علمٍ وصبرٍ ونقاء؛ لأن من يجاهد بالقرآن لا يجوز أن يناقض القرآن في أخلاقه.

لا يُنصر الحق بالكذب، ولا تُحمى الكرامة بالظلم، ولا يُدعى إلى الرحمن بقلبٍ قاسٍ. فالوسيلة في المنهج القرآني جزءٌ من الشهادة للغاية.

البحران اللذان يلتقيان ولا يذوب أحدهما في الآخر

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَغِجْرًا مَّحْجُورًا).

يعرض القرآن مشهد الماء في صورة أخرى: ماءٌ عذبٌ شديد العذوبة، وماءٌ ملحٌ شديد الملوحة، يلتقيان في نظام قدره الله، ولكلٍّ خصائصه ووظيفته.

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا).

ليس البرزخ جداراً تراه العين، بل حدٌّ أقامه التقدير. وفي الكون حدود لا تحتاج إلى حجارة كي تكون قوية؛ يكفي أن يقول الله للشيء: إلى هنا.

وما أجمل اتصال هذا المشهد باسم السورة: الفرقان. فالكون نفسه قائمٌ على الفروق والحدود؛ بين العذب والملح، والليل والنهار، والنور والظل، والحياة والموت. وإذا كان صلاح الكون في بقاء الفروق التي أقامها الله، فإن فساد الوعي يبدأ حين يحو الإنسان الفرق بين الحق والباطل، والعدل والظلم، والطهر والفساد.

ليست كل الحدود قسوة؛ بعض الحدود رحمة. فكما يحفظ البرزخ خصائص المياه، تحفظ الحدود الإلهية إنسانية الإنسان من الذوبان في شهواته.

من قطرة ماء إلى شبكةٍ من الأنساب

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا).

من ماءٍ مهين يخلق الله إنساناً، ثم ينسج حوله عالماً من العلاقات: نسباً وصِهْرًا، آباءً وأبناءً، وإخوةً وأزواجاً، وبيوتاً تتداخل فيها الأرحام والمصاهرات.

يا لهذه المسافة بين القطرة والأسرة، وبين الماء والذاكرة، وبين البداية الدقيقة والإنسان الذي يحمل اسماً وتاريخاً وأحلاماً!

يذكّرنا الأصل المائي بأننا جميعاً خرجنا من ضعف؛ فلا معنى لكبرياء النسب، ولا لتفاخر الإنسان بأمرٍ لم يصنعه. ثم يذكر النسب والصحريين أن القدرة التي خلقت الفرد هي التي أخرجت منه المجتمع، وحولت الوحدة إلى مودة وقرابة.

(وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا).

قادرٌ أن يخلق من الماء عقلاً يفكر، ولساناً يتكلم، وقلباً يحب، وعيناً تبكي. وقادرٌ أن يعيد هذا الإنسان بعد أن يصير تراباً، فن رأى البدء لم يستبعد الإعادة.

عبادةٌ ما لا ينفع ولا يضر

وبعد كل هذه الآيات: الظل، والشمس، والليل، والنوم، والرياح، والماء، والبحار، وخلق الإنسان؛ يعود المشهد إلى مأساة الشرك:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا).

ما أشد التناقض! الله يمد الظل، وينزل الماء، ويخلق البشر، وهم يتوجهون إلى ما لا يملك نفعاً ولا ضرراً.

ولم يكتف الكافر بالإعراض، بل صار (عَلَى رَبِّهِ ظَهِيْرًا)؛ أي معيْنًا للباطل في خصومته للحق. أعطاه الله القوة، فاستخدمها في محاربة هدايته؛ وأعطاه اللسان، فسخره لتكذيب وحيه؛ وأعطاه العقل، فجعل منه آلة لتزيين العصيان.

وهذه غاية المجود: أن يقاتل الإنسان المنعم بنعمته.

الرسول بين البشارة والإنذار

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا).

في الرسالة جناحان: بشارة تفتح نوافذ الرجاء، وإنذار يحرس الطريق من السقوط. ومن أخذ أحدهما وترك الآخر اختل تصوره عن الله وعن نفسه.

البشارة وحدها، إذا عزلت عن المسؤولية، قد تتحول إلى أمنٍ كاذب؛ والإنذار وحده، إذا عزل عن الرحمة، قد يتحول إلى يأس. أما القرآن فيبني القلب بين الخوف والرجاء: يخاف فلا يجرؤ على المعصية، ويرجو فلا يقنط بعد الذنب.

ثم يعلن الرسول ﷺ تجرده الكامل:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا).

لا يطلب مالاً، ولا جاهاً، ولا مكافأة على الهداية. أجر الرسالة أن يهتدي من شاء؛ ورجح الداعية الحق أن يرى إنساناً قد وجد سبيله إلى الله.

وتأمل قوله: (إِلَىٰ رَبِّهِ). الطريق لا ينتهي إلى جماعة ولا إلى شخص ولا إلى شهرة؛ ينتهي إلى الله. وكل دعوة تحبس الناس عند صاحبها بدل أن توصلهم إلى ربهم قد ضيعت شيئاً من صفاء النبوة.

التوكل على الحي الذي لا يموت

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بُذُنُوبَ عِبَادِهِ خَبِيرًا).

لا نتوكل على حيٍّ يوشك أن يموت، ولا على قوةٍ نثاكل، ولا على قلبٍ يتغير، ولا على بابٍ قد يغلق. توكل على الحي الذي لا يموت؛ لأن السند الذي تدخله احتمالات الفناء لا يمنح الروح أماناً كاملاً.

كل من نتعلق به في الدنيا محكوماً بالضعف: قد يحبك ولا يستطيع نصرتك، وقد يعدك ثم تمنعه المقادير، وقد يكون إلى جوارك اليوم ثم يحول الموت بينك وبينه. أما الله فلا يعجزه ما طلبت، ولا يفوته ما خفت، ولا يغيب، ولا ينام، ولا يموت.

والتوكل ليس ترك الأسباب، بل تحرير القلب من عبادتها. تعمل بما تستطيع، ثم لا ترى نجاتك معلقةً بعملك؛ لأن السبب قد يكتمل ولا تأتئ النتيجة، وقد تضيق الأسباب كلها فيأتي الفرج من طريقٍ لم تحسبه.

ثم قرن التوكل بالتسبيح والحمد:

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ).

نزه ربك عن كل ظنٍّ لا يليق به، واحمده على تديره ولو لم تدرك تمام حكمته. فالتسبيح ينفي عن القلب سوء الظن، والحمد يملؤه بحسن المعرفة.

سِتَّة أَيَّامٍ مِنْ الْخَلْقِ، وَسُلْطَانٌ مِنَ الرَّحْمَةِ

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا).

خلق السماوات والأرض في ستة أيام، مع قدرته على أن يقول للشيء كن فيكون؛ ليعلم الإنسان أن التدرج لا ينافي القدرة، وأن الأحكام قد يمر بمراحل مقدرة. فمن استعجل الثمرة قبل أوانها لم يفقه سنن البناء.

ثم أخبر سبحانه عن استوائه على العرش كما يليق بجلاله، من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا تكييف ولا تعطيل؛ فهو تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).

وجاء الاسم هنا مرة أخرى: الرحمن. فالذي له علو القهر والملك هو نفسه الرحمن؛ لا تنفصل قدرته عن رحمته، ولا سلطانه عن إحسانه. هذا الكون العظيم ليس تحت تدبير قوة صماء، بل تحت ملك الرحمن.

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا).

لا تطلب معرفة الله من أوهام البشر، بل من الوحي الذي أخبر به الخبير. فالعقل يهتدي إلى آثار القدرة، لكن خبر السماء هو الذي يدل على أسماء الله وصفاته وما يليق بجلاله.

حين يستكبرون عن السجود للرحمن

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا).

قيل لهم: اسجدوا للرحمن؛ للاسم الذي يفتح أبواب الرحمة كلها. ومع ذلك نفروا. كأنهم لم يعودوا يرفضون تهديداً، بل يرفضون الرحمة نفسها لأنها جاءت من غير الطريق الذي أراده كبرهم.

قالوا: (وَمَا الرَّحْمَنُ)، لا سؤال المتعلم، بل سؤال المستهزئ. وكان جواب السورة قبل سؤالهم وبعده منتشراً في كل مشهد: الرحمن هو الذي مد الظل، وجعل الليل لباساً، وأنزل الماء طهوراً، وخلق من الماء بشراً، وأرسل الرسول مبشراً ونذيراً.

لكن من أغلق قلبه لا تكفيه كثرة الآيات؛ فقد يقف في بحر الرحمة ثم يسأل: أين الماء؟

(وَزَادَهُمْ نُفُورًا).

الآية نفسها التي تزيد المؤمن قرباً قد تزيد المستكبر نفوراً؛ لا لنقص في النور، بل لمرض في العين. فالمطر واحد، لكنه يخرج من الأرض الطيبة زرعاً، ويزيد الأرض السبخة انكشافاً.

بروج وسراج وقر منير

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا).

تعود كلمة (تَبَارَكَ)، فتربط آخر هذا المقطع بأوله. بدأ بالتبارك عند تنزيل الفرقان، وهنا يأتي التبارك عند بناء السماء. فكان القرآن كَوْنٌ مقروء، والكون قرآنٌ منظور؛ كلاهما يدل على الخلق، وكلاهما ينير الطريق.

جعل في السماء منازل عظيمة، وجعل الشمس سراجاً؛ فيها ضوء وحرارة، وجعل القمر منيراً؛ يسكب ضوءه الهادي على ظلمة الليل.

واختلاف الوصف من دقة البيان: فالسراج مصدرٌ متوقد، أما القمر فينير الليل بذلك النور اللطيف الذي قدره الله له. لكل مخلوق وظيفته، وليس عليه أن يكون نسخةً من غيره.

وهذه لمسة تربوية رقيقة: لا تحتقر نورك لأنه ليس كشمس غيرك. قد لا تكون سراجاً يملأ النهار، لكنك تستطيع أن تكون قرأً يهدي حائرًا في ليلٍ بعيدة القيمة ليست في التشابه، بل في أن تؤدي الأمانة التي خلقت لها.

اختلاف الليل والنهار... فرصة لاستدراك العمر

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا).

الليل والنهار يتعاقبان؛ يخلف أحدهما الآخر. فإذا فاتك عملٌ في هذا أدركته في ذاك، وإذا غلبتك غفلةٌ في الليل جاء الصباح بفرصةٍ جديدة، وإذا أضعت النهار فتح لك الليل باب المناجاة.

هذه من رحمة الزمن: أنه لا يأتي لونا واحداً. جعل الله في تعاقبه مجالاً للاستدراك؛ فلا تحكم على عمرك من ساعة ضعف، ولا تجعل عثرة الأمس قدر اليوم.

ما دام الليل يعقبه نهار، فباب الرجوع مفتوح. وما دام النهار يطويه الليل، فهناك خلوة تستطيع فيها أن تجمع شتاتك وتعود.

لكن الانتفاع بهذا التعاقب يحتاج إلى إرادة:

(لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرْ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا).

فالايات تملأ الكون، لكنها لا تقتحم قلباً لا يريد. لا بد من إرادةٍ تفتح النافذة للنور: إرادة تذكّر تعيد الحقيقة إلى القلب بعد غفلتها، أو إرادة شكرٍ تحول الزمن إلى طاعة.

وبهذه الآية تقف السورة عند عتبة مشهدها الأبهى.

لقد عرضت الرحمن في خلقه وتديره ورحمته، وها هي الآن ستعرض عباد الرحمن؛ أولئك الذين ترك اسم الله أثره في مشيتهم وكلامهم وليلهم ودعائهم وإنفاقهم وعفتهم.

كأن الكون كله كان يمهد لظهورهم:

الظل علمهم الرفق.

والليل علمهم السجود.

والماء علمهم الإحياء.

والبرزخ عليهم الحدود.
والشمس والقمر عليهما أن يحمل كلُّ منهما نوره بأمانة.

والآن سنراهم يمشون على الأرض...
لكن قلوبهم معلقةٌ بالسماء.

المحطة السادسة

عباد الرحمن... حين يصير الإيمان هيئةً للحياة

ها نحن نبليغ المقطع الذي كانت السورة كلها تمهد له.

بعد أن رأينا المستكبرين وهم يرفضون السجود للرحمن، تفتح لنا الآيات نافذةً على قوم انتسبوا إليه بالعبودية:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ).

لم تقل: وعباد الله، مع جلال هذا الاسم، وإنما نسبتهم إلى الرحمن؛ لأن الرحمة هي المناخ الذي نمت فيه أرواحهم، والنور الذي انعكس على أخلاقهم. عرفوا الرحمن، فصار في مشيتهم رفق، وفي خطابهم سلام، وفي ليلهم سجود، وفي إنفاقهم اتزان، وفي خوفهم من النار يقظة، وفي توحيدهم وفاء، وفي توبتهم رجوع جميل.

إنهم ليسوا أصحاب دعوى يعلنونها، بل أصحاب هيئة تكشفهم. لم تبدأ الآيات بوصف كلامهم عن أنفسهم، وإنما وصفت مشيهم على الأرض؛ لأن العقيدة حين تستقر في القلب لا تبقى فكرةً محبوسة، بل تنزل إلى الجوارح، وتظهر في النبرة والخطوة والنظرة وطريقة التعامل مع الناس.

في مطلع السورة قيل عن النبي ﷺ: (تَزَلَّ الْفُرْقَانُ عَلَى عَبْدِهِ)، وفي خاتمتها يظهر (عِبَادُ الرَّحْمَنِ). فكأن القرآن الذي نزل على العبد الكامل أخرج إلى الحياة جماعة من العباد؛ تلقوا الفرقان حتى صار خلقاً يمشي.

مشية لا تجرح الأرض

(الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا).

بدأت صفاتهم بالمشي؛ لأنه الفعل الذي يراه الناس منهم كل يوم. لم يبدأ بما يخفى من عبادتهم، بل بما يظهر من أثرها في الحياة.

والهون سكينَةٌ ووقار وتواضع، وليس ضعفاً ولا ذلاً. إنهم لا يمشون مشية المتكسر الذي يتصنع الخشوع، ولا مشية العاجز الذي لا يملك القوة؛ بل يمشون مشية من هانت الدنيا في قلبه، فلم يحتاج إلى أن يستعلي بها على أحد.

إن المتكبر يثقل على الأرض وإن كان خفيف الجسد؛ يملأ المكان بذاته، ويطلب من الوجوه أن تلتفت إليه، ويقيس قيمته بمقدار ما يثيره من رهبة. أما عبد الرحمن فيعبر كالغيث: حضوره رحمة، وقوته مأمونة، ووقاره لا يجرح أحداً.

تأمل قوله: (عَلَى الْأَرْضِ). هذه الأرض التي خلُقوا من ترابها، وسيعودون إلى ترابها، ويحشرون من ترابها؛ فكيف يستكبر فوقها من يحمل أصلها في جسده ونهايتها في مصيره؟

ومن عرف أنه يمشي على أرض الله، ويتنفس من هواء الله، ويتقلب في نعم الله، استحيا أن يجعل ما وهبه الله وسيلةً للتعالي على عباد الله.

لكن الهون لا يعني أن يكون المؤمن مستباحاً، ولا أن يقبل الظلم، ولا أن يتنازل عن الحق. فقد كان رسول الله ﷺ أهون الناس مشيةً، وأثبتهم موقفاً. التواضع في الإسلام

ليس انكسار الكرامة، بل انكسار الكبر؛ وليس ضعف الإرادة، بل طهارة القوة من الغرور.

يمشي عبد الرحمن هوناً، لكنه إذا انتهكت حرمة الله وقف. يلين للضعيف، ولا يلين للباطل. يخفض جناحه للمؤمنين، ولا يضع عنقه تحت قدم الظالم. في قلبه سكينه العابد، وفي موقفه صلابه صاحب الحق.

سلامٌ يحمي الروح من عدوى الجهل

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا).

قال: (خَاطَبَهُمُ)، فالجهل جاء إليهم واقترب منهم، وربما تعتمد استفزازهم. ومع ذلك لم يسمحوا له أن يدخل إلى أعماقهم ويعيد تشكيل أخلاقهم.

والجاهل هنا ليس قليل المعلومات فحسب، بل من غلبت عليه خفة النفس وسفه السلوك؛ من يريد أن يجر الآخرين إلى المساحة التي يجيد فيها الصراخ والإهانة.

لكن عباد الرحمن (قَالُوا سَلَامًا).

ليست الكلمة هنا مجرد تحية، بل موقف كامل: كلاماً سالماً من الإثم والسفه، وانصرافاً كريماً عن معركة لا تليق بهم. إنهم لا يعجزون عن الرد، ولكنهم يعرفون أن بعض الانتصارات هزيمةٌ للروح، وأنك قد تفهر خصمك بعبارة ثم تخسر شيئاً من نقاء قلبك.

أعظم قوة في لحظة الاستفزاز أن تظل مالكا لنفسك. فالجاهل يريد أن يختار لك لغتك، ويحدد لك مستوى الحوار، ويجعلك نسخة أخرى منه. فإذا أجبت سفهه بسفهٍ مثله، فقد غلبك قبل أن تغلبه؛ لأنه نجح في إخراجك من مقامك إلى مقامه.

أما قولهم: (سَلَامًا)، فهو إعلان أن أرواحهم ليست ساحات مفتوحة لكل عابر. إنهم لا يمنحون الجاهل سلطاناً على سكينتهم، ولا يجعلون كل كلمة تستحق معركة.

وفي السورة تناسقٌ بديع: أولئك قالوا عن الرسول ﷺ: (أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) ساخرين، وهؤلاء إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً. هناك نفوس تبحث عن السخرية، وهنا أرواح أوسع من أن تحبسها إساءة.

ومع ذلك فليس كل سكوت سلاماً، ولا كل إعراض حكمة؛ فقد يجب بيان الحق ورد الظلم. وإنما الفرق في الدافع واللغة والغاية: هل تتكلم نصرةً للحق، أم انتقاماً للجرح الأنا؟ هل تقيم الحجة، أم تريد إذلال الخصم؟ عباد الرحمن قد يردون، لكنهم لا يفجرون؛ ويقفون، لكنهم لا يظلمون.

نَهَارُهُمْ هَوْنٌ وَلَيْلُهُمْ سَجُودٌ

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا).

بعد أن رأيناهم في الطرقات، تأخذنا الآية إلى غرفهم المغلقة. فالإنسان قد يصنع أمام الناس هيئة جميلة، لكن الليل يكشف الحقيقة؛ إذ لا جمهور يراقب، ولا ثناء ينتظر، ولا صورة تُلمع.

هناك يبيتون لربهم.

لم تقل: يسجدون ويقومون فحسب، بل (يبيتون)؛ فالليل نفسه اتخذ هيئة العبادة. نتعاقب عليهم حالتا السجود والقيام: جباه على الأرض، وأقدام منتصبه بين يدي الله. يخفض الجسد في السجود، وترتفع الروح؛ ويتعب البدن، ويجد القلب راحته.

وقوله: (لربهم) هو سرُّ الليل كله. ليست العبادة عادةً تؤدي، ولا بطولةً روحية يفخرون بها، بل مناجاةً بينهم وبين ربهم. إنهم يقومون لأنه ربهم؛ خلقهم، ورعاهم، وسترهم، وأطعمهم، وحملهم في مواطن لم يكن لهم فيها حول ولا قوة.

الذي يمشي نهاراً هوناً هو نفسه الذي يسجد ليلاً؛ وكأن الآيتين تفسر إحداهما الأخرى. ما تواضع بين الخلق إلا لأنه عرف مقامه أمام الخالق، وما سلم من الجاهلين إلا لأن قلبه ذاق في الليل سلام القرب من الله.

من لم تكن له خلوة تصلح سريره، أتعبه معارك العلانية. أما الذي يقف بين يدي ربه في الليل، فإنه يخرج إلى النهار وقد رتب قلبه: عرف ما يستحق أن يحزن له، وما لا يستحق؛ وما يستحق أن يقاتل من أجله، وما ينبغي أن يمر عنه كريماً.

والليل في سورة الفرقان كان قبل ذلك لباساً، لكنه هنا يصير محراباً. الناس جميعاً يلبسهم الليل، غير أن عباد الرحمن يملؤونه بالسجود. وهكذا لا يتميزون بامتلاك زمنٍ لا يملكه الآخرون، بل بحسن استعمال الزمن الذي أُعطي للجميع.

قوم يسجدون... ولا يأمنون

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا).

مع أنهم يبيتون سجداً وقياماً، لم تغرهم عبادتهم، ولم يقولوا: لقد أمانا. بل رفعوا أكف الخوف:

(رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ).

إن المؤمن الصادق لا يرى عمله ثمناً للجنة، بل يرى رحمة الله نجاته. كلما ازداد طاعةً ازداد معرفةً بنقصه، وكلما اقترب من النور رأى في نفسه ما لم يكن يراه في الظلام.

أما المغتر فيتأمل أعماله حتى تحجبه عن المنعم، ويعظم في عينه سجوده حتى يصغر في قلبه افتقاره إلى الرحمة. وشتان بين طاعة تقود صاحبها إلى العجب، وطاعة تزيد انكساراً وخوفاً ورجاء.

قالوا: (رَبَّنَا)، فتوسلوا بربوبيته؛ نحن عبادك الذين خلقتهم وربيتهم، فلا تكلنا إلى أعمالنا، واصرف عنا العذاب بلطفك.

واختيار كلمة (اصْرِفْ) يحمل معنى النجاة قبل الوصول؛ لم يقولوا: أخرجنا منها، بل سألوه ألا يدخلهم إياها. وهم لا يطلبون تخفيف العذاب، وإنما صرفه كله.

ثم عللوا دعاءهم:

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا).

والغرام هو الشيء الملازم الذي لا يفارق صاحبه، ومنه الغريم لملازمته. فعذاب جهنم ليس ألماً عابراً ينتظر المرء نهايته، بل عذابٌ يلتصق بصاحبه فلا يجد منه مهرباً.

وفي كلمة (غَرَاماً) مفارقةٌ مؤثرة؛ فالناس يستعملون الغرام في الحب الملازم، لكن هؤلاء خافوا ملازمة العذاب. وكأن السورة تحذر من أن الغرام بالشهوة في الدنيا قد ينتهي غراماً بالعذاب في الآخرة، إذا لم يقطع الإنسان تعلقه الحرام قبل فوات الأوان.

(إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا).

وكانت الجنة قبل قليل: (خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا). ها هي المقابلة تعود: مستقرٌّ في الجنة، ومستقرٌّ في النار؛ لكن ما أبعد ما بين القرارين!

إنهم يستحضرون النهاية وهم في قلب الحياة، ولذلك تستقيم خطواتهم. من رأى المآل قبل أن يصل إليه اختار الطريق على بصيرة. أما الغافل فينظر إلى لذة الخطوة، ولا يسأل أين تنتهي به.

مِيزَانُ لَا يَبْدُدُهُ الْبَخْلُ وَلَا يَكْسِرُهُ الْإِسْرَافُ

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا).

بعد المشي والكلام والسجود والدعاء، تدخل السورة إلى المال. فالإيمان الذي لا يظهر في طريقة الإنفاق لم يستكمل نفاذه إلى الحياة.

المال يكشف حقائق خفية في النفس: مقدار خوفها من الغد، ودرجة ثقتها بالله، ومدى تحررها من الاستعراض، وصدق شعورها بحقوق الآخرين.

عباد الرحمن لا يسرفون؛ لأن المال نعمة وأمانة، ولأن الإسراف ليس سعة يدٍ فقط، بل اضطرابٌ في الميزان. قد ينفق المسرف ليملاً فراغاً داخلياً، أو ليشتري نظرات الناس، أو ليثبت لنفسه أنه قادر. فيستهلك الأشياء، ثم تستهلكه حاجته إلى المزيد.

ولا يقترون؛ لأن البخل سوء ظن بالله وقسوة على الخلق وتعلق بما لا يبقى. يحتفظ البخل بالأشياء خوفاً من الفقر، فيعيش فقير الروح ولو امتلأت خزائنه.

وبين الإسراف والتقتير يقوم القوام: العدل الذي تستقيم به الحياة. ليس وسطاً حسابياً جامداً، بل إنفاقٌ موزون بحسب الحاجة والقدرة والواجب. يعطي النفس حقها دون تدليل، والأسرة حقها دون خنق، والمحتاج حقه دون منٍّ، والمستقبل قدراً من التدبير دون هلع.

والاعتدال هنا ليس فتوراً في الكرم؛ فقد يكون بذل المال كله في موطنٍ واجب هو عين الحكمة. إنما المعيار ألا يقود الإنفاق هوى الاستعراض، ولا يمنعه خوف الشح، بل يضبطه رضوان الله.

وفي السورة رابطٌ خفي بين خطواتهم وأموالهم: يمشون هوناً، وينفقون قواماً. لا مبالغة في الظهور، ولا اضطراب في التصرف. لقد صنع التوحيد في نفوسهم اتزاناً يمتد من الطريق إلى السوق، ومن السجدة إلى الدرهم.

نقاء العقيدة وحرمة الحياة وطهارة القلب

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ).

ثلاث حرمان كبرى اجتمعت في آية واحدة:

حق الله في التوحيد.

وحق الإنسان في الحياة.

وحق الأعراض والأنساب في الطهارة.

إن بناء عباد الرحمن لا يقوم على الرقة وحدها، فليسوا مجرد أشخاص هادئين يقولون سلاماً؛ إنهم أصحاب عقيدة واضحة وحدود مصونة، الرحمة التي ينتسبون إليها ليست رخاوة تذيب الفروق بين الحق والباطل، بل رحمة تحرس التوحيد، وتحفظ الدم، وتصون العفة.

بدأت بالشرك لأنه الاعتداء الأكبر على حقيقة الوجود: أن يصرف الإنسان شيئاً من العبادة لمن لم يخلقه ولم يرزقه. والذي وحد الله تحرر من تعدد السادة؛ فلا يوزع قلبه بين خوف البشر ورجائهم، ولا يبيع ضميره لصنم المال أو النفوذ أو الشهوة.

ثم حرمة النفس:

(وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ).

لم يقل: النفس المؤمنة فقط، بل النفس التي حرم الله. فالحياة الإنسانية ليست شيئاً مباحاً تعبت به الأهواء، ولا رفقاً يُمحي تحت شعارات القوة. كل نفس حرم الله قتلها تحمل سياجاً من أمره؛ ومن سفكها بغير حق لم يقتل جسداً فقط، بل اعتدى على حرمة أقامها الله.

ثم العفة:

(وَلَا يَزْنُونَ).

لأن الشهوة إذا انفصلت عن عهد الله لا تخرج فرداً واحداً، بل تصيب شبكة كاملة من القلوب والبيوت والأنساب والثقة. والإسلام لا يحارب الغريزة؛ بل يحفظها من أن تتحول من طاقة بناء ومودة إلى باب هدم وخيانة.

وجمعت الآية بين القتل والزنا؛ فذاك عدوان على بقاء الجسد، وهذا عدوان على طهارة النسل والبيت. وكلاهما ثمرة أن يجعل الإنسان رغبته فوق حدود الله.

الجزء الذي يتضاعف فيه الألم

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا).

لا يضيع الفعل بعد وقوعه، بل ينتظر صاحبه في صورة جزاء: (يَلْقَى أَثَامًا). كأن الإثم الذي أرسله الإنسان أمامه في الدنيا قد تجسد، ثم وقف في طريقه يوم القيامة ليلقاه.

وإلى ألم العذاب يضاف ألم الإهانة: (وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا). فقد يطبق الإنسان بعض الألم إذا بقيت كرامته، لكن العذاب هناك يجتمع فيه وجع الجسد وانكسار النفس.

كان يتكبر عن السجود لله، فإذا به يدخل العذاب مهانًا. وكان يطلب العزة من الشهوة والقوة، فإذا الطريق الذي حسبه عزةً ينتهي إلى المهانة.

غير أن السورة، وهي تبلغ بالقلب هذا الموضع المخيف، لا تغلق الباب. ففي اللحظة التي يكاد اليأس يطبق على المذنب، يشرق من بين الآيات بابٌ عظيم، بابٌ لا يحو الجريمة فحسب، بل يعيد كتابة الماضي كله بنور الرحمة:

(إِلَّا مَنْ تَابَ...).

وهنا سنقف في المحطة الآتية أمام واحدةٍ من أرجى آيات القرآن؛ حيث لا يكتفي الله بأن يغفر السيئات، بل يبدها حسنات.

المحطة السابعة

حين لا تحو التوبة الماضي فحسب... بل تبدّله نوراً

بعد أن ذكرت السورة أعظم الذنوب: الشرك، وقتل النفس، والزنا؛ وبعد أن صوّرت العذاب مضاعفاً والخلود مقروناً بالمهانة، بدا كأن الجريمة قد أغلقت على صاحبها أبواب النجاة.

لكن الرحمة التي انتسب إليها هؤلاء العباد لا تسمح لليأس أن تكون له الكلمة الأخيرة. ولجأة يفتح في الجدار باب:

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا).

إنها إلا التي تفصل بين مصيرين، وتنشل إنساناً من ماضيه كله. مهما امتد الظلام، تستطيع هذه الكلمة أن تفتح فيه نافذة. ومهما ابتعد العبد، فإن بينه وبين الله طريقاً يبدأ بانعطاف القلب الصادقة.

لم يقل القرآن: إلا من لم يذنب؛ فلو كان طريق القرب لا يسلكه إلا من خلا ماضيه من العثرات، لضاق الطريق بأكثر الناس. وإنما قال: (إِلَّا مَنْ تَابَ). فالعبرة ليست بالآلّا تسقط أبداً، بل بالآلّا تتخذ السقوط وطناً؛ وليست الطهارة أن يكون ماضيك بلا ذنب، بل أن يكون قلبك حاضراً للرجوع.

والتوبة ليست كلمة تستر الذنب مع الإصرار عليه، بل انقلاب في الاتجاه. كان وجه القلب منصرفاً عن الله، فاستدار إليه. كان يرى المعصية لذة، ثم رآها جرحاً في صلته

بربه. ندم، وأُقلع، وعزم على ألا يعود، وردَّ الحقوق إلى أهلها إن تعلق الذنب بحقوق العباد.

ثم قال: (وَأَمَّنْ). لأن التوبة ليست فراغاً يتركه الذنب بعد رحيله؛ لا بد أن يُملأ القلب بإيمانٍ جديد، ومعرفةٍ أصدق بالله، وثقةٍ في رحمته، وخوفٍ من العودة إلى البعد.

ثم قال: (وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا). فالصدق الداخلي لا بد أن يشق لنفسه طريقاً إلى الخارج. من تاب بلسانه وبقيت خطواته تمضي في الطريق نفسه، لم تكتمل توبته. أما التائب الصادق فيبني في موضع الخراب: يصل ما قطع، ويظهر ما لوّث، ويجعل من بقية عمره اعتذاراً عملياً إلى الله.

المعجزة التي تقع في صحيفة الإنسان

(فَأُولَٰئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ).

ليس الوعد أن تُمحى السيئات فحسب، مع أن محوها فضلٌ تهتزله الروح؛ بل أن تُبدَّل حسنات.

يا لسعة الرحمة!

تلك الصفحات التي كان العبد يستحي من أن تُعرض، يتدخل فيها فضل الله، فإذا مواضع السواد قد صارت نوراً. الماضي الذي كان يطارده بالخوف يصبح بعد صدق التوبة سبباً في انكساره وعبادته وإحسانه.

وقد يكون من معاني هذا التبديل أن تبديل طبيعة الإنسان نفسها: بدل الشرك توحيد، وبدل العدوان رحمة، وبدل الفجور عفة، وبدل القسوة رقة، وبدل البعد قرب. لا يعود الشخص الذي كانه، وإن ظل يحمل الاسم والجسد نفسيهما.

فالذنب الذي أورثه ندمًا صادقًا قد يفتح له من أبواب الافتقار ما لم تكن تفتحه عليه الطاعة المجردة؛ لا لأن الذنب خير، حاشا، بل لأن الله قادرٌ أن يستخرج من رماده قلبًا أكثر تواضعًا، وأشد خوفًا، وأوسع رحمةً بالمذنبين.

إن الشيطان يريد أن يجعل لك من ماضيك سجنًا. يقول لك: كيف تعود بعد كل ما صنعت؟ وكيف تقف بين يدي الله وقد خنته مرارًا؟ لكن هذه الآية تهدم جدران السجن: لا يملك ماضيك أن يمنعك من الله إذا جئت الله صادقًا.

لا تجعل معرفتك بقبح ذنبك أكبر من معرفتك بسعة رحمة ربك. فالذنب محدودٌ لأنه فعل عبدٍ محدود، أما المغفرة فمن الله الذي لا تحد خزائنه.

ثم تختم الآية:

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا).

غفورًا يستر الذنب ويمحوه، ورحيمًا لا يكتفي بإبعاد العقوبة، بل يهب بعد العفو قربًا وحسنات. المغفرة تنقذك مما تخاف، والرحمة تبلغ بك ما ترجو.

التوبة التي تعيد الإنسان إلى موطنه

(وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا).

تكررت التوبة، لكن التعبير هذه المرة يفتح عمقاً جديداً:
(يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ).

ليست التوبة هرباً من النار فقط، بل عودةً إلى الله. قد يترك الإنسان الذنب خوفاً من فضيحة أو مرضٍ أو خسارة، فيكون قد ترك الفعل ولم يصل إلى الله. أما التوبة الكاملة فهي أن يعود القلب إلى ربه، وأن يشعر أنه كان غائباً فرجع، وضالاً فاهتدى، ووحيداً فوجد مأواه.

(مَتَابًا) تأكيدٌ لعظمة هذا الرجوع وصدقه. ليست لحظة انفعالٍ عابرٍ تتطفئ حين تهدأ النفس، بل عودةٌ حقيقية يعقبها بناء جديد.

ما أجمل أن يعرف الإنسان أن له، رغم اغترابه كله، موطناً روحياً يعود إليه! قد تطرده خطيئته من سكينته قلبه، لكن الله لا يغلق في وجهه الطريق. وكل توبة صادقة هي رحلة رجوع إلى البيت الأول: إلى الفطرة التي عرفت ربها قبل أن يعلوها غبار الحياة.

أهل الحقيقة

لا يشهدون الزور ولا يهبطون إلى مجالسه

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ).

بعد صفاء العقيدة وطهارة الجوارح، تأتي طهارة الموقف من الحقيقة. ولفظة (يَشْهَدُونَ) تحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور، ولا يحضرون مجالسه ومواقعه، فكأنهم يحمون ألسنتهم من أن تنطق بالباطل، وأقدامهم من أن تقف في ساحاته.

والزور هو الباطل المزيّن، الكذب الذي صُنِعَ له وجهٌ مستعار كي يبدو حقيقة. وعباد الرحمن لا يبيعون شهادتهم لخوفٍ أو طمع، ولا يشاركون في صناعة روايةٍ كاذبة لأن الجمهور يريدّها، ولا يتركون أسماء الأشياء تُسرق أمامهم.

في أول السورة قال الله عن المكذبين: (فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا)، وهنا يأتي عباد الرحمن في الجهة المقابلة: (لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ). فكأن السورة فرّقت بين جماعتين باللغة نفسها: قوم يصنعون الزور، وقوم لا يقفون في ساحته.

إن قول الحقيقة عبادة، وحماية المعنى من التزييف أمانة. وقد يكون الزور كلمةً تُدين بريئًا، أو صمتًا يحمي ظالمًا، أو صورةً مبتورةً تغَيّر سياق حدث، أو مبالغةً تصنع للباطل بطولَةً ليست له.

وعبد الرحمن لا يسأل أولاً: مع من يقف الناس؟ بل يسأل: أين الحق؟ لأن الفرقان في قلبه لا يسمح له أن يقيس الحقيقة بالولاء للأشخاص. يحب، لكنه لا يكذب لأجل من يحب؛ ويخاصم، لكنه لا يظلم من يخاصم.

فالعدل لا يظهر حقًا حين تنصف صديقك، بل حين يمتنعك بغضك من أن تفترى على عدوك.

المرور الكريم لا يعني الرضا

(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا).

اللغو كل ما سقط من الكلام والفعل، مما لا يحمل حقًا ولا يبني خيرًا. وعباد الرحمن قد يمرون به؛ فهم لا يعيشون معزولين عن العالم، ولا يملكون أن يمتنعوا كل قبيح من الظهور، لكنهم يملكون كيفية المرور.

(مَرُّوا كِرَامًا).

لا يجلسون إليه مستمتعين، ولا يلوثون ألسنتهم به، ولا يقفون عنده طويلاً حتى يسكن في نفوسهم. يمرون محتفظين بكرامتهم الداخلية؛ فلا يهبطون إلى مستوى المشهد، ولا يحملون منه ما يثقل أرواحهم.

وما أشد حاجة الإنسان في زمن الضوضاء إلى فقه المرور! ليست كل كلمة تستحق القراءة، ولا كل خصومة تستحق المشاركة، ولا كل مشهد يستحق أن تمنحه جزءًا من قلبك وعمرك.

قد يظن الإنسان أنه يتسلى باللغو، وهو في الحقيقة يستهلك حساسيته الأخلاقية قليلاً قليلاً. فما تكثر مشاهدته يأنس به القلب، وما يأنس به يفقد قبحه، ثم قد يصير جزءًا من طبعه.

والمرور الكريم لا يعني اللامبالاة بالمنكر الذي يجب تغييره، وإنما يعني ألا يصبح الباطل موطناً للروح. قد تنكره ثم تمضي، وقد تبين الحق ثم لا تستدرجك المهاترة، وقد تغادر مجلساً لأن بقاءك فيه يمنحه من الاحترام ما لا يستحق.

الكريم لا يجعل القذارة تفرض عليه شكل حضوره.

حين يسمعون الآيات بقلوب مبصرة

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا).

يا لعظمة التعبير!

لم يقل: لم يرموا عليها صمًّا وعمياناً، بل قال: (لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا). فقد يقع الجسد قريباً من الآيات، بل قد يخر الإنسان في هيئة السجود، ومع ذلك يكون قلبه أصم وعينه عمياء عن المعنى.

إنهم لا يتلقون القرآن تلقياً شكلياً. لا تنساب الآيات على أسماعهم ثم تتركهم كما كانوا؛ يسمعونها بقلوبهم، ويرون بها مواطن خللهم، ويسمحون لها أن تغيرهم.

والصمم هنا صمم القلب عن الاستجابة، والعمى عمى البصيرة عن الاعتبار. قد يحفظ الإنسان الآية ولا يسمع خطابها إليه، وقد يفسر دقائق ألفاظها ولا يرى العيب الذي تكشفه في نفسه. وقد يجعل القرآن مرآة لعيوب الآخرين، لكنه يرفض أن يقف أمامه ليرى وجهه هو.

أما عباد الرحمن، فإذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يدافعوا عن أخطائهم، ولم يبحثوا عن تأويلٍ يعفيهم من التغيير. لأن الآيات آيات ربهم؛ والذي خاطبهم بها هو الذي رباهم بنعمه، ويعلم ما يصلحهم. فيتلقون العتاب بوصفه غناية، والأمر بوصفه طريقاً، والنهي بوصفه حماية.

القرآن لا يريد أذنًا تسمع فقط، بل إنساناً ينهض بعد السماع مختلفاً.

وهنا تظهر صلةٌ بديعةٌ باسم السورة: الفرقان لا يكون فرقاناً في حياة الإنسان حتى يسمح له أن يفرّق داخل نفسه؛ بين إيمانه وهواه، وبين إخلاصه وريائه، وبين ما يزعمه عن ذاته وما تكشفه الآيات منها.

دعاء البيت الذي لا ينتهي عند جدرانه

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ).

بعد أن رأيناهم أفراداً يمشون ويسجدون وينفقون، نراهم الآن في بيوتهم. إنهم لا يريدون النجاة وحدهم، ولا يرضون أن تكون علاقتهم بالله تجربةً فرديةً معزولة؛ يريدون أن يمتد النور إلى أزواجهم وذرياتهم.

قالوا: (هَبْ لَنَا)، لأن صلاح الأسرة هبةٌ من الله، لا تصنعه الوسائل وحدها. قد يبذل الإنسان التربية والنصح والقدوة، لكنه يظل مفتقراً إلى من يفتح القلوب. فالهداية ليست صناعة أبوية، وإنما فضلٌ رباني يأخذ الوالدان بأسبابه ويسألان الله تمامه.

ولم يسألوا ذريةً كثيرةً ولا مَالاً واسعاً، بل سألوا: (قُرَّةَ أَعْيُنٍ).

وقرة العين هي سكونها من الفرح؛ فلا تنتطح إلى ما وراء ما رأت. وأي شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى أحب الناس إليه سائرین إلى الله؟ إن جمال الأبناء ونجاحهم الدنيوي لا يملآن قلبه إن خاف عليهم ضياع المصير. يريد أن يرى في وجوههم نور السجود، وفي أخلاقهم أثر الوحي، وفي اختياراتهم خوف الله.

إن الولد قد يكون زينةً للعين في الدنيا، لكنه لا يصير قرّةً كاملةً إلا إذا كان رفيقاً في طريق الجنة.

وفي الآية تصحيحٌ لمعنى الحب: ليس الحب أن توفر لمن تحب متاعه فقط، بل أن تخاف على آخرته. وقد يمنح الأب أبناءه كل شيء ثم يحرمهم أعظم ميراث: قلباً يعرف الله. وقد يترك لهم بيتاً ولا يترك في البيت قبلةً أخلاقية، فيملكون المكان ويضيع منهم الطريق.

عباد الرحمن يريدون بيوتاً لا تستر أجسادهم فحسب، بل تحفظ إيمانهم؛ بيوتاً إذا دخلتها شعرت أن الرحمة لها صوت، وأن القرآن ليس ضيفاً، وأن الاختلاف لا يهدم المودة، وأن القوة لا تتحول إلى ظلم.

الطموح الذي لا يتواضع عن الإمامة

ثم لا يقفون عند صلاح بيوتهم:

(وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا).

لم يقولوا: واجعلنا من المتقين فقط، مع عظمة هذا المقام؛ بل سألوا أن يكونوا للمتقين إماماً. إنها همة لا ترضى بالنجاة الفردية، بل تطمح أن تكون دليلاً للخير، وقدوةً يستضيء بها السائرون.

وهذا ليس طلباً للزعامة ولا لحب الظهور؛ لأن من أراد أن يكون إماماً للمتقين لا بد أن يكون أشدهم تقوى، وأبعدهم عن طلب المنزلة لنفسه. إنه يسأل مسؤوليةً أخلاقية، لا كرسيًا بشريًا.

الإمامة الحقيقية أن يسبق فعلك قولك، وأن يكون حضورك حجةً للخير لا دعايةً لنفسك. أن يراك الناس فيتعلموا الصدق قبل أن تحدثهم عنه، ويروا عدلك فيفهموا الدين، ويجدوا في رحمتك أثر اسم الرحمن.

ولفظ (إماماً) جاء مفرداً مع أن الداعين جمع؛ كأن بيوتهم وقلوبهم، على كثرتها، اجتمعت على وجهة واحدة، أو كأن كل واحدٍ منهم يطلب أن يكون نموذجاً للهدى.

إن المؤمن لا يطلب التفوق ليعلو على الآخرين، بل ليحملهم معه. يريد أن يتقدم في الخير حتى يفتح لمن خلفه طريقاً، لا حتى ينظر إليهم من عليّ.

الجزء من جنس المسير

(أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا).

بعد سلسلة الصفات الطويلة يأتي اسم الإشارة: (أُولَئِكَ). كأن القرآن يشير إليهم من بعيد تعظيماً لمقامهم: هؤلاء الذين مشوا هوناً، وقالوا سلاماً، وسجدوا ليلاً، وخافوا النار، واعتدلوا في الإنفاق، ووحّدوا الله، وحفظوا الدماء والأعراض، وتابوا، واجتنبوا الزور، ومروا باللغو كراماً، وأصغوا للآيات، وأصلحوا بيوتهم، وطلبوا إمامة التقوى؛ هؤلاء لهم الغرفة.

والغرفة هي المنزلة العالية في الجنة. كانوا في الدنيا يمشون على الأرض هوناً، فرفعهم الله في الآخرة إلى الغرف. تواضعوا هنا فارتفعوا هناك؛ وخفضوا جباههم في السجود، فرفع الله منازلهم.

لكن الآية جمعت أعمالهم كلها في كلمة واحدة:

(بِمَا صَبَرُوا).

لأن كل صفةٍ من تلك الصفات تحتاج إلى صبر.

المشي هوناً يحتاج إلى صبرٍ على كبح الكبر.

وقول السلام يحتاج إلى صبرٍ على جرح الإساءة.

وقيام الليل يحتاج إلى صبرٍ على لذة النوم.

والاعتدال يحتاج إلى صبرٍ عن شهوة الإسراف وخوف البخل.

والعفة تحتاج إلى صبرٍ أمام الفتنة.

وترك الزور يحتاج إلى صبرٍ أمام الضغط والطمع.

وتربية البيت تحتاج إلى صبرٍ طويل لا تصنعه لحظة حماسة.

كأن شخصية عبد الرحمن نُسجت كلها بخيط الصبر. فالأخلاق ليست أمنيات جميلة؛ إنها اختيارات متكررة في لحظات الاختبار.

تحية تحو ذكرى الجهل كله

(وَيُلَقُّونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا).

في الدنيا خاطبهم الجاهلون بالسفه فقالوا سلاماً، وفي الآخرة يتلقون من الملائكة تحيةً وسلاماً. ما أضاع الله الكلمة الطيبة التي قالوها تحت ضغط الأذى؛ أعادها إليهم في الجنة أماناً خالداً.

هناك لا جاهل يستفز، ولا عدو يهدد، ولا خبر يفزع، ولا فراق يبجرح. سلامٌ من كل خوف، ومن كل نقص، ومن كل ذكرى مؤلمة.

وقد عاشوا في الدنيا يحرسون السلام داخل أرواحهم، فكافأهم الله بدارٍ صار السلام فيها هو المناخ كله.

(خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا).

كانت جهنم: (سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)، وهنا الجنة: (حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا). هذا هو الفرقان الأخير بين الطريقين؛ كلمات متقابلة، ومصيران لا يلتقيان.

وما أجمل أن تأتي كلمة (مُقَامًا) بعد كل حركة عباد الرحمن في الدنيا. لقد مشوا، ومروا، وقاموا، وسجدوا، وتابوا؛ كانت حياتهم رحلةً من المجاهدة، ثم انتهت إلى مقامٍ لا رحيل بعده.

ما الذي يزن الإنسان عند الله؟

بعد كل هذه المشاهد الكبرى؛ بعد تنزيل الفرقان، وخلق السماوات والأرض، وتكذيب المعاندين، وتشقق السماء، ومصارع الأمم، وامتداد الظل، ونزول المطر، وظهور عباد الرحمن؛ تختتم السورة بسؤال القيمة:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ).

ما الذي يجعل لهذا الإنسان الضعيف وزناً في هذا الملك الهائل؟ ما الذي يرفعه، وهو قطرة بين بحرين، ولحظة صغيرة بين ليل ونهار، وكائن يمشي فوق ذرة من أرض الله؟ إنه دعاؤه وعبادته وإقباله على ربه.

ليس مال الإنسان ما يمنحه قدره عند الله، ولا نسبه، ولا صورته، ولا ضجيج اسمه بين الناس. قيمته في الجهة التي يتوجه إليها قلبه، وفي مقدار افتقاره إلى الله، وفي صدق عبوديته.

الدعاء اعتراف بأنك لست مكتفياً بنفسك، وأن لك رباً يسمعك ويملك ما تعجز عنه. ولذلك كان الدعاء نقيض الكبر الذي ملأ السورة؛ أولئك اقترحوا على الله ما يفعل، أما عباد الرحمن فقالوا: (رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا)، وقالوا: (رَبَّنَا هَبْ لَنَا). هناك ذاتٌ تملي شروطها على السماء، وهنا قلبٌ يرفع حاجته إلى ربه.

(فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا).

لقد جاء كم الفرقان، وقامت الحجّة، وظهرت الآيات في الوحي والكون والتاريخ والنفوس؛ فإن بقي التكذيب بعد ذلك، فإن عاقبته ستلازم أصحابها. فالاختيار الذي يكره الإنسان يتحول إلى مصير، والطريق الذي يصر عليه ينتهي به إلى المكان الذي يناسبه.

وهكذا تُغلّق سورة الفرقان أبوابها، لكن نورها لا ينطفئ.

بدأت بـ(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ)، وانتهت بقيمة الدعاء. بدأت بكتاب ينزل من السماء، وانتهت بأكفٍ ترتفع من الأرض. بين النزول والصعود تتشكل حياة المؤمن: ينزل الله إليه بالهداية، ويرتفع هو إلى الله بالعبادة والدعاء.

وفي قلب هذا المسار يقف عباد الرحمن؛ الجواب الحي عن سؤال السورة كله. فهم الفرقان حين يتحول من كلمات مقروءة إلى إنسانٍ منظور. فرقانٌ في مشيتهم بين التواضع والذلة، وفي كلامهم بين الحلم والعجز، وفي إنفاقهم بين الكرم والسرف، وفي عبادتهم بين الرجاء والغرور، وفي مواقفهم بين الحق والزور، وفي بيوتهم بين مجرد الاجتماع وقرّة العين.

سورة الفرقان لا تسألك في نهايتها: كم مرة قرأت آياتها؟ بل كأنها تسأل:

هل صار لك من اسمها نصيب؟

هل وُلد في قلبك ميزانٌ لا يخدعه الزور؟

هل رقت خطوتك على الأرض لأن جبهتك عرفت السجود؟

هل تستطيع أن تقول سلاماً حين يريد الجاهل أن يختطفك؟

هل تسمع الآيات بقلبك، أم تمر عليها أصمّ وأعمى؟
وهل صرت عبداً للرحمن، أم ما يزال الهوى يطالبك بالعبودية؟

إن الفرقان الحقيقي ليس أن تعرف موضع الباطل في الآخرين فحسب، بل أن تكتشف مواضعه في نفسك. أن تفرّق بين غضبك للحق وغضبك لذاتك، وبين إخلاصك وحب ظهورك، وبين صبرك وعنادك، وبين حاجتك المشروعة وجشعك المستتر.

فإذا فعل القرآن ذلك بك، لم يعد كتاباً بين يديك فحسب؛ بل صار نوراً في عينيك، وميزاناً في ضميرك، وسكينةً في خطوك.

وحينئذٍ تمشي في هذا العالم الصاخب، لا تحمل صحبه في قلبك.
تواجه الزور، ولا تتلوث به.

تعبر اللغو، ولا يقيم فيك.
ترى الأهواء تُعبد، وتبقى لله وحده.

وتسمع الجاهلين يرفعون أصواتهم، فتدرك أن أشد الأصوات علواً ليس بالضرورة أقربها إلى الحق.

ثم تمضي هوناً...

لا لأن الطريق بلا وجم، بل لأن الرحمن معك.
ولا لأن العالم صالح كله، بل لأن الفرقان في قلبك.
ولا لأنك ضمنت عملك، بل لأنك عرفت باب الدعاء.

فتقول في ليلك، وأنت تجمع قلبك من شتات الأرض:

ربنا اصرف عنا عذاب جهنم.
ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين.
واجعلنا للمتقين إماماً.

ثم تسجد...

وحين ترتفع جبهتك من الأرض، تكون قد اقتربت من السماء أكثر مما تفعل كلُّ
خطي المتكبرين.

تمَّت رحلتنا التأملية في سورة الفرقان، والحمد لله رب العالمين.